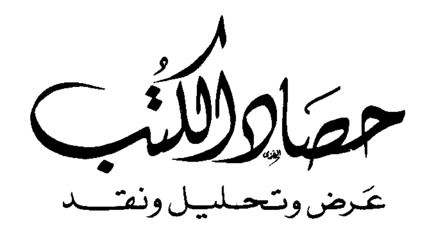
المكتبة الثقافية

-١-

علي محمد العمير



نشر وتوزيع
دار العمير
للثقافة والنشر
جدة - ص.ب ٨٩٥٢

الطبعة الثانية
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

مطابع سحر جدة

بسم اللہ الرحمن الرحیم

مقدمة

لربما كان الكتاب من أسباب شقوتي ، وعدم قدرتي على تحقيق الحد الأدنى مما حققه غيري فى جوانب كثيرة من شئون الحياة العامة .. وهو لايزيد عني ـ بأي حال من الأحوال ـ بل ربما يقل !! بل يقل !!

لعل السبب في ذلك هو صحبتي الطويلة المزمنة للكتاب ، وملازمته (أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر) !!

ولا تخلو علاقتي بالكتاب .. أو عشرتي له من طرائف ومفارقات غير مسألة (فضل ثوب المعسر) !!

وصحبة الكتب هي سبب اشتهار الأدباء بالبؤس والتعاسة في حياتهم العامة حتى وصل الأمر بعامة الناس ـ منذ القدم ـ أنهم اذا رأوا أحدهم متأبطا كتابا .. أو منكبا على كتب قالوا عنه :

(أدركته حرفة الأدب) !!

ومعني ذلك ـ في نظرهم ـ انه قد أدركه الفشل .. او لحقته الخيبة .. ربما لأن الطبيعة التي تلازم صاحب الكتب تجعله يلهو بدنيا كتبه .. فلا يهتم الاهتمام الكافي بدنيا الناس ووسائل معاشهم !!

ربما هذا .. وربما ذاك .. كما يعتقد الناس

ولكن ، وحتي بافتراض ان كل ذلك صحيح فان الحقيقة التي يعرفها أرباب الكتب جيدا ، ويجهلها عامة الناس .. هي ان ساعة واحدة مع كتاب جيد تساوي أياما .. بل أعواما من الحياة الفارغة الجوفاء التي يعيشها بعض اولئك الذين يعتبرهم عامة الناس من كبار الناجحين .. وليس هو النجاح .. وانما هو الفراغ الروحي ، والخواء النفسي ، والتحجر الفكري .. قد غلّف كل ذلك بمظاهر براقة خادعة مزبرقة .. ليست من حقيقة الحياة في شيء !!

ولكن ذلك هو ما تواضع عليه الناس ـ مع كل اسف ـ .. ومن ذا الذي يستطيع ان يخالف ماتعارف عليه عامة الناس ؟!

فياعامة الناس .. مغفرة وصفحا عن جرأتي هذه غير المقصودة علي قدس أقداسكم المتمثل في قولكم « الحكيم » المشهور : (من يملك قرشا يساوي قرشا) !!

ذلكم هو الحق .. اما الذي يملك المعرفة او بعضها فلا يساوي شيئا بالطبع .. وانا اول من « يبصم » معكم على ذلك .. فهل يرضيكم مني هذا ياسادتي الكرام .. ياعامة الناس ؟!!

أما الطرائف والمفارقات التي حصلت لي من جراء « حماقتي » في صحبة الكتب فهي كثيرة ، وبعضها يضحك الثكلى !!

ولكنني لا أعتقد أن يتوقع مني القاريء ذكر مثل ذلك في مقدمة كتاب .. وانما هي إشارة عابرة أفلتت مني ربما لأن هذه المقدمة هي مقدمة كتاب يتحدث عن الكتب أصلا ، ولا شأن له غير ذلك .. فكان لابد من تداعي الذكريات .. ومن ثم لابد من فلتة إشارة عابرة مثل هذه !!

أما الكتاب الذي بين ايديكم .. والذي خرج الآن من كونه كان ملكا لي وحدي طيلة اعوام مديدة واصبح ملكا مشاعا .. نصيبي منه لايزيد عن نصيب اي قاريء .. بل ان نصيبي منه اكثر خسارة وبوارا لأن اي عيب فيه لاينسب لغيري .. وما اكثر العيوب بالنسبة لمثلي وامثالي ممن تزداد حدة حساسيتهم بالجهل كلما ازدادوا قليلا او كثيرا من المعرفة !!

فما بالكم اذا كانت مادة هذا الكتاب عبارة عن موضوعات متعددة كتبت ونشرت في أوقات مختلفة علي مدى عدة سنوات كما يتضح من تاريخ كل موضوع .. لاشك أنني عند كتابة كل موضوع من موضوعات هذا الكتاب كنت ـ في كل مرة ـ أشعر بجهلي اكثر من ذي قبل .. ولذلك لابد ان يلاحظ القارىء انني في كل تاريخ متقدم من تواريخ هذه الموضوعات اكون في ذلك الموضوع اكثر جرأة واعتداداً بالنفس او اغترارا بها على أصح !!

والعكس من ذلك تماما .. أكون أكثر ميلا للتواضع وتحسبا لمواقع الخطى عندما أكتب

موضوعا آخر بعد فترة زمنية كافية لازدياد احساسي بالجهل بقدرما أكون قد ازددت قراءة واطلاعا !!

ليس هذا تواضعا .. بل هو الحقيقة .. ولكن ـ رغم ذلك ـ سيجد القاريء في موضوعات هذا الكتاب الكثير من عنفوان الشباب .. والكثير ايضا من حماس المخلصين لعشقهم .. علي ان هذه الموضوعات التي اخترتها بين دفتي هذا الكتاب هي في الواقع قليل من كثير مما كتبته عن الكتب حيث عمدت الي استبعاد الكثير من ذلك لا لشيء الا لقسوة تلك الموضوعات وعنفها .. وماتركته حين نشرها من ردود فعل لم تكن متوقعة مني فخسرت بذلك صداقات عزيزة .. واكتسبت بدلا منها عداوات !!

وماكان كل ذلك ليحدث لو لم اكن في مطلع شبابي « عبيطا » حين صدقت حكاية (ان اختلاف الرأي لايفسد للود قضية) !!

وحين صدقت المزاعم القائلة ان الأدباء ـ من بين سائر الناس ـ هم الأكثر رحابة صدور وتقبلا للنقد .. بل والاستفادة منه ايضا !!

وتلك مزاعم ضخمة كنت أقرأ عنها في شبابي فصدقتها بكل براءة و« عبط » !!

وزاد الطين بلة مصادفة انني كنت منذ بداية ميولي الأدبية المبكرة وكنت بفطرتي او طبيعتي ـ ولست أدري لماذا ؟ ـ ميالا الي النقد الأدبي .. ثم نما هذا الميل البريء معي حتي اصبحت « كويتبا » يحتل مساحات شاسعة من أعمدة الصحف والمجلات ربما بحق .. وربما بدون حق .. ولكن المهم هو ان موضوعاتي المفضلة كانت دائما : النقد الأدبي !!

كنت أشعر بكل براءة ـ كما يعلم الله ـ انه من حقي ابداء رأيي في اي كتاب أقرأه .. أو أي موضوع أدبي يعن لي حتي ولو كان هذا الرأي مخالفا لرأي أحد كبار أساطين الأدب .. وحتى لو كانت عبارتي لاتخلو من حدة .. أو لذعة سخرية أكون قد قصدت بها المداعبة أو المفاكهة أكثر مما أكون قد قصدت التجريح .. وماذا عساه يدفعني الى التجريح حين لاتكون لي في كثير من الأحيان أدنى معرفة بالأديب الذي نقدته ؟!

بل وحتي لو كنت على معرفة وثيقة بالأديب المنقود فان ذلك ـ كما هو مفروض ـ يجعلني أبعد ما أكون عن قصد تجريحه .. ولايعقل ـ من جهة اخرى ـ ان تكون بيني

وبين الأديب المنقود حزازات شخصية تبلغ بي ـ مع كل تلك البراءة ـ الى حد استخدام النقد الأدبي كسلاح في معركة الحزازات الشخصية !!

ولكن هكذا كان .. ولم يكن الخطأ خطأ الأدباء الذين غضبوا وثاروا وأقاموا الدنيا ولم يقعدوها .. واستخدموا أرخص الأسلحة في محاربتي .. وليس منها بالطبع سلاح قرع الحجة بالحجة أو دحض الرأي بالرأي .. ولكن كانت أسلحة أخرى تماما .. ليست من ذلك في شيء !!

حقا .. لم يكن الخطأ هو خطأ أولئك الأدباء .. وانما كان خطئي أنا أساسا منذ صدقت ان اختلاف الرأي لايفسد للود قضية .. في حين الواقع يصرخ بأن اختلاف الرأي يفسد كل القضايا .. حتي في مجال الأدب .. وليس فقط في الخلاف على حدود أرض مثلا .. أو نحو ذلك !!

وحين أدركت كل ذلك ـ بعد فوات الأوان ـ لم أتعظ ـ مع الأسف ـ ولا أظنني سأتعظ .. فمن شب علي شيء شاب عليه كما يقولون !!

ولكن كل ماهنالك هو أن الأمر اختلف قليلا معي فبدلا من أن أكتب بكل تلك البراءة الساذجة ، وذلك التصديق الأعمى بحكاية رحابة صدور الأدباء .. أصبحت أكتب النقد ـ لا أقول بخبث وسوء طوية ـ بل بحذر شديد وباستعداد مسبق لتقبل اي رد فعل غير معقول !!

أكتب ما أعتقده حقا ـ ودعك من كونه ربما غير ذلك من وجهة نظر أخرى ـ ثم لاأبالي قام الأديب المنقود او قعد .. ولكنني في كل ذلك أراعي منتهى الحرص او الاحتراس .. الأمر الذى خفف ـ بالضرورة ـ من حدتي القديمة !!

وبهذه الروح نفسها مع رواسب ماتزال عالقة في نفسي من ذلك التصديق القديم برحابة صدور الأدباء .

بمزيج من هذه وتلك قمت باختيار موضوعات هذا الكتاب من بين عشرات الموضوعات ، حيث راعيت ان يكون الأشخاص موضع النقد في موضوعات هذا الكتاب هم الأقرب في ذهني فعلا الي مزية رحابة الصدر .. وان كان حتى هؤلاء المختارين يتفاوتون مع الأسف في التمتع بهذه المزية .

ثم راعيت ـ مع ذلك ـ في اختيار موضوعات الكتاب ان تكون هي الموضوعات التي كنت فيها أكثر احتراسا وحرصا !!

وذلك كل مايمكنني قوله في هذه المقدمة عن موضوعات الكتاب من حيث هي كمضمون !!

أما من حيث هي ككتاب فان هذه الموضوعات لم تؤلف في مجملها كوحدة لكتاب ، ولذلك لم تكن ـ في ترتيبها وتبويبها ـ وفقا لمنهج معين .. وانما هي مجموعة من الموضوعات النقدية كتبت ونشرت في أوقات مختلفة .

ولكن المبرر الوحيد الذي يمكن ان يقوم مقام المنهج في جمع هذه الموضوعات في كتاب بذاته ، هو وحدة الموضوع الذي تصب فيه .. أو تدور حوله جميع موضوعات الكتاب وهو نقد الكتب واستعراضها وتحليلها وابداء الرأي فيها ..

فاذا كان هذا ليس مبررا كافيا ـ من حيث المنهجية ـ في رأي اخواننا من المنهجيين فانني استميحهم العذر اصالة عن نفسي .. ونيابة عن المئات من المؤلفين ـ وبعضهم من الكبار جدا ـ ممن اتبعوا هذه الطريقة نفسها في اخراج الكثير جدا من كتبهم !!

وما أنا إلا .... الخ !!

وبعد .. فقد أطلت ، ولكن هل أفدت .. اللهم غفرا .. !!

١٤٠٢/٦/١٠هـ

علي محمد العمير



كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني

هل هو

كتاب تاريخ

أم

كتاب أدب ؟!



كتاب الأغاني

[ابني الأستاذ علي العمير من شباب هذا الجيل الواعي ، يتصف بصفة يجب ان تنمي حتي تثمر ، تلك الصفة تقوم علي أساس الشك ـ الشك في كل شيء ـ بغية الوصول الي الحقيقة ، علي طريقة ابي الطيب :

فصِرْتُ أشكُّ في من أصطفيه　　　لعلمي أنه بعض الأنام

وقد قيل : ان الشك هو طريق الوصول الي الحقيقة . والأستاذ العُمير يريد ان نسايره في شكّهِ عَلَّنا نصل الي حقائق اكثر واكثر مما عرفناه عن هذا المؤلف الخالد كتاب « الأغاني » وهو في مقاله هذا يسير علي خطة اشار اليها مؤرخو ابي الفرج من طرف خفي ، فحاول عليٌ ان يوضحها فلقد أورد الخطيب[1] عن ابي الفرج قول محمد بن الحسن النوبختي : كان ابوالفرج الأصبهاني اكذب الناس ، كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة ، والدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئا كثيرا من الصحف ، ويحملها الي بيته ، ثم تكون رواياته كلها منها . ثم يورد الخطيب قولا آخر ينفي هذا الا انه يثبت انه خلط قبل ان يموت ، وعلي العمير ، يعرض لنا ذلك الرأي عرضا يتلاءم مع اسلوب العصر الذي نعيشه ، وهو عرض ـ مهما كان ـ جدير بأن يكون له مكانة ، وان يكون له قراء ـ مع معرفة ما لكتاب « الأغاني » من قيمة ثقافية ، ان حاول محاولون اضعافها من حيث الرواية ، الا انها تصوّر واقعا من حياتنا ، قد لايضيرنا اذا كان تصويرها قائما علي أساس من التصوير الخيالي البحت ، أو من طريق الرواية ، فهو واقع أيا كانت وسائل ابرازه ، وما أجدرنا وأحوجنا الي ان نسمع شبابنا المتطلع الواعي الحائر الي الشك في كل شيء يصور لنا أفكاره وآراءه][2]

(حمد الجاسر)

---

(١) « تاريخ بغداد » ١١/٣٩٩

(٢) مابين المعقوفين مقدمة افضل بها أستاذنا الكبير العلامة الشيخ حمد الجاسر عند نشره لهذا الموضوع في مجلة (العرب)

أبو الفرج ورواياته المسندة ؟

يعتبر العصر الذي عاش فيه مؤلف كتاب « الأغاني » خلاصة أزهى العصور الاسلامية ، حضارة ، ورونقا وبهاء ، وترفاً وسرفا ، وطلب علم ، وتحصيل رواية ، وسماع نغم الخ .

وكان الخلفاء والوزراء والأمراء وسراة القوم يغالون في تكريم العلماء والأدباء والشعراء .. ويجزلون لهم العطاء .. حتي لقد انتهى الينا ان الخليفة أو الأمير أو الوزير يسمع البيت او البيتين من الشعر . فيترنح ويهتز نشوة وطربا .. ثم لايرى للشاعر من صلة الا ان يحكمه فيما يريد .. !!

وهكذا فاللهى تفتح اللها .. نفقت بضاعة الأدب في هذا العصر .. وازدهت تجارته .. فأقبل عليه الناس طلبا للذته وفوائده ، وحسن المثوبة عليه !!

وكان من بين هؤلاء ، ومن المجلين في عصره ، مؤلف كتاب « الأغانى » . وقد كانت الكتب تؤلف في ذلك العصر استجابة لطلب امير او رغبة وزير .. !!

وهذا بالضبط هو الباعث الأول لتأليف كتاب « الأغاني » ويقول مؤلفه : (والذي بعثني على تأليفه ان رئيسا من الرؤساء كلفني جمعه له) [١] .

وهكذا فالباعث الأول لتأليف هذا الكتاب الضخم هو تلبية لرغبة رئيس ـ وأكرم بها من تلبية ـ ولكن ماذا عسي يرغب فيه هذا الرئيس من تأليف كتاب عن الأغاني ؟ .. الا ان يكون له مصدر لهو ومتعة ، وقصص وسمر ؟ .

وهل بوسع الأصبهاني الا تلبية هذه الرغبة ؟ . ثم هل بوسعه الا ان يراعي اهداف الرئيس المترف والا ان يعمل على امتاعه وإيناسه بما (يروق القلب ، ويلهي السامع) من الطرائف ، والأخبار ، والأشعار ؟

وما قصر في ذلك الأصبهاني ولا تواني .. حيث (اتي في كل فصل من ذلك بنتف تشاكله ، ولمع تليق به ، وفقر اذا تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة الى مثلها ، ومتصرفا فيها بين جد وهزل ، وآثار وأخبار ، وسير وأشعار) [٢] .

---

(١) ج ١ ص ١٦ الأغاني .

(٢) من مقدمة الأغاني .

وبالرغم من بساطة الباعث على تأليف كتاب « الأغاني » الا انه قد جاء في النهاية اكثر بكثير من مستوى دوافع تأليفه ، ولا غرو فالأصبهاني على علو كعبه ، واصالة ثقافته ، وواسع علمه بالروايات .. لايمكن ان يتمخض كما فعل الجبل الطيب الذكر !!

لقد اهتم بالأمر على قدر مستواه هو .. لا علي قدر البواعث والدوافع .. وتكلف .. لا بل سلخ من عمره نصف قرن في تأليف الكتاب . فجاء الكتاب على أقصى ماشتهى وأراد ، مفخرة من المفاخر ، قدر له من الانتشار والذيوع والرواج مالم يقدر لكتاب من نوعه في مختلف العصور منذ تأليفه الي الآن !! .

لقد ملأ الدنيا وشغل الناس .. واصبح من اهم المراجع التاريخية والأدبية (لنا في ذلك رأي سيأتي بعد) حيث اشتمل علي قدر هائل من أخبار العرب واشعارهم ، وأيامهم ، وقصصهم ، ومآثرهم ، ومثالبهم ، وحيث اشتمل على قدر كبير من أخبار أزهى العصور الاسلامية .. مما يستطيع معه الباحث المنقب الدقيق الملاحظة ان يستخلص اهم جوانب الحضارة الاسلامية في ازهى عصورها .. وخاصة عهد الأمويين والعباسيين .

ولكن الى اي حد نستطيع الاعتماد علي كتاب الأغاني ورواياته المسندة ؟ الواقع ان الاسناد في الرواية لايعطيها الحق في ان تكون قضية مسلمة ..

هذا بدهي جدا .. ولكنه يجرنا للحديث عن الروايات المسندة وغير المسندة من أساسها ، اذ قد ذهب بعض الأدباء بكتاب « الأغاني » بعيدا حيث اعتبروه حجة تاريخية فيما رواه وأسنده .. وقد جر الى هذا الخطل الأسانيد المتعددة عن فلان عن علان عن ابيه عن جده !! ..

وتناسوا أو جهلوا ان الروايات قد لفقت بأسانيد مختلفة كذبا وزورا علي رسول الله ﷺ نفسه .. واختلق عليه مالم يقله وهو رسول الهدى ، فما بالك بغيره ؟ .. إلا ان جهابذة من العلماء ورجال الحديث قد انبروا لهذه الروايات الملفقة ، وأوسعوها غربلة ونقدا وتكذيبا وتسفيها ، ووضعوا الأسس والقواعد لعلم الحديث ، الأمر الذي جعل الرواية عن رسول الله ﷺ تنجو الى حد بعيد من اختلاق المختلقين ، وافتراءات المفترين .

اما رجال السند في الروايات الأدبية والتاريخية فان احدا مع الأسف لم يعن بهم عناية رجال الحديث برواته .. لذلك لايستطيع الباحث الآن ان يعتمد علي احد او آخر من

رجال السند هؤلاء .. دون ان يتكبد جهدا مضاعفا ، ومشقة بالغة !! .

لو ان بعض الباحثين قد انبرى لرجال السند في الروايات الأدبية والتاريخية لكنا الآن بمنجاة من زيف هؤلاء ، كما أصبح رجال الحديث بمنجاة من زيف أولئك .. وسننظر الآن بقدر مانستطيع في شأن روايات « الأغاني » ومدى استطاعة الاعتماد عليها ؟ .

١ ـ المعروف عن ابي الفرج الأصفهاني .. انه رجل ادب وجماع رواية .. وانه لم يقل قط انه قد تصدى في هذا الكتاب كمؤرخ .. بل أكد ونبه الى انه : (يكره ان يؤثر عنه في هذا المعنى مايبقى علي الأيام مخلدا ، وإليه على تطاولها ، منسوبا .. وان كان مشوبا بفوائد جمة ومعان من الاداب شريفة) [١] .

وليس من غرض للكتاب سوى الحرص على جمع كل ماقيل ، بصرف النظر عن صدقه من كذبه . وان كان المؤلف نفسه ينبه احيانا الى ان هذا الخبر : (الصنعة فيه واضحة او ذاك مكذوب) .

وكذلك نص في اكثر من مكان من كتابه انه يكره ان يخلو الكتاب من شيء قد رواه ودونه الناس [٢] .

٢ ـ نص مؤلف الكتاب ان الباعث علي تأليفه ـ كما أشرنا آنفا ـ هو استجابة لرغبة رئيس من الرؤساء في تأليف كتاب عن الأغاني .. لا عن التاريخ .. والذي يطلب أو حتى الذي يؤلف كتابا عن الأغاني لايمكن ان يحرص حرص المؤرخ على صحة الرواية من عدمها .

ويجب ألا يخدعنا مايحصل أحيانا من تنبيهات مؤلف الأغاني علي عدم صحة بعض الأخبار ومايعرضه احيانا من نقد شديد لبعض الروايات .. فانه انما يفعل ذلك لا لغاية التحقيق وتحري الدقة في هذه الروايات بقدر ماهو ابراز لمكانته في علم الرواية ، وهو بحق كذلك ، ولكن لم يكن من غايته في كتاب « الأغاني » ان يحقق ويدقق .. بل غايته الامتاع والمؤانسة .. وجمع أكبر قدر من الروايات التي تحقق بابة الكتاب لايكاد يهمه

---

(١) ص ١٧ ج ١ .
(٢) ج ١٨/ ١٦١ .

صدقها من كذبها ، وفي الحق ان الرواة لايلزمهم بالضرورة تحري الصحة من عدمها في الرواية بقدر مايلزمهم عدم الوضع والاختلاق ...

٣ ـ الرواة ورجال السند في الروايات الأدبية والتاريخية ربما لكونهم لا يجدون حرجا دينيا او خلقيا يمنعهم من اختلاق الروايات . أو غلوا في ذلك ، وذهبوا كل مذهب .. تارة لغرض سياسي او حزبي .. وتارة اخرى للتسلية والمتعة .. وطورا ليقال عنهم رواة دهاة ، ليثابوا على ذلك وتجزل لهم الأعطيات .. خاصة وهم فى عصر نفقت فيه بضاعة الأدب ، وازدهت تجارته ..

ولقد اشتهر كذب معظم الرواة في ذلك العصر نفسه ، حيث تواترت الأخبار التي وردت الينا في كتب الأدب والتاريخ عن ذلك ، ولسنا في حاجة الى ضرب الأمثلة .. فان الموضوع اشهر عند كل متأدب من ان تضرب له الأمثال ..

ولعله اتضح لنا مما تقدم انه لايمكن الاعتماد بحال على روايات « الأغاني » المسندة او غير المسندة كقضية مسلمة .

ولكن لاشك ان هذه الروايات ، تبقى بعد ذلك وبرغمه ، من اهم مصادر التاريخ والأدب العربي .. ولكن شريطة ان ينبري لها ولغيرها من الروايات في كتب التاريخ والأدب من رجال البحث ، من يوسعها بحثا وتمحيصا ، وقياسا ومقارنة ، والاستدلال بالظواهر علي البواطن ، ووضع القواعد والأسس لذلك .

ولاشك ان رجال الحديث من أسلافنا الأفذاذ قد تركوا لنا ثروة ضخمة من القواعد الصارمة التي وضعوها لرواية الحديث ورواته .. يمكننا ان نستعين بها خير استعانة في سبيل غربلة روايات التأريخ والأدب .. بالاضافة الي ما يمكننا الاستعانة به من مناهج البحث الغربي الحديث الذي قطع شوطا طويلا في هذا المضمار .

وان تراثنا الأدبي والتاريخي لفي امس الحاجة الي ذلك . ولعلنا ننتهي الى القول : ان كتاب « الأغاني » بقدر ماهو كتاب لهو وسمر ، وقصص وخيال ، وعبث ومجون .. كذلك هو كتاب تأريخ وأدب من طراز رفيع ، ولكن بشرط ان ينبري له من يستطيع الاستفادة والافادة منه .

أما القارىء العادي .. فانه لن يبلغ ذلك .. ولكنه على أية حال لن يخسر .. سينتقل

من جد الى هزل ، ومن فائدة صغيرة الى متعة كبيرة .. وهكذا دواليك فليكن الله في عونه .. !!

نماذج من أكاذيب الرواة !!

الراوية لغة هو الجمل او الحمار الذي يستقى عليه الماء .. ومن هنا اشتقت تسمية (رواة) لرواة الحديث والأدب والتاريخ .. فالراوية هو الذي يسمع الحديث فينقله كما هو عمن سمعه .. وليس من شأنه نقد المتن المروي .. ولكن يلزم عدم الوضع ، وعدم الاختلاق والكذب .

هذه خلاصة موجزة ـ وربما مخلة في ايجازها ـ عن ماهية الراوية وتعريفه .. اضطررنا اليها كتوطئة للحديث عن أولئك الذين ابتلي بهم ادب العرب ، ولغتهم ، وتاريخهم ، بل وشريعتهم ايضا .. ابتلاء لم تعرفه ـ فيما أعلم ـ أمة من الأمم بالقدر الذي ابتليت به أمة الضاد .

وأقصد هذا العدد الكبير من الرواة الذين لم يراعوا في رواياتهم إلا ولا ذمة .. اتخذوا من الرواية سلعة يتاجرون بها ، ومطية هوى وأغراض .. فجاءوا بسيل من الروايات الكاذبة الزائفة .

ولئن كنت قد أشرت آنفا الى ان الراوية ليس من شأنه نقد المتن .. او ان يتأكد من صحة الرواية او عدم صحتها .. فلست هؤلاء أقصد .. وإنما أقصد أولئك الذين يختلقون الروايات ويضعونها عمدا لسبب مذهبي او سياسي او نفعي .. فهؤلاء هم مصيبتنا .. وأكثر منهم إيجاعا لنا من يستشهدون بأقوالهم الى اليوم ، اما عن جهل او غرض .. كما يفعل بعض أدعياء العلم عندنا ! او كما يفعل بعض المستشرقين من أصحاب الهوى والغرض !!

لقد بدأ الوضع والاختلاق عند رواة الحديث « حين تنازع المسلمون شيعا وأحزابا .. وانقسموا سياسيا الي جمهور وخوارج وشيعة .. فكان الانتصار للمذاهب . من اهم الأسباب الداعية الى وضع الأخبار واختلاق الأحاديث .. حتى لقد قال أحدهم : « انظروا هذا الحديث عمن تأخذونه فإنا كنا اذا رأينا رأيا جعلنا له حديثا »[1] .

---

(١) ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ علوم الحديث ومصطلحه الدكتور صبحي الصالح .

هذا بالنسبة للحديث عن النبي ﷺ .. ورحم الله عبدالله بن المبارك قيل له : هذه الأحاديث الموضوعة ؟ فقال : تعيش لها الجهابذة « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »[1] وقد عاش لها الجهابذة .. وميزوا الخبيث من الطيب .. ووضعوا القواعد والأسس لعلم الحديث .. فكفانا الله شر الرواة من هذا القبيل الي حد بعيد ..

أما رواة الأدب والتاريخ .. فهم الذين مازلنا نعاني من اكاذيبهم .. وهم الذين لم ينبر لهم رجال البحث في الأدب والتاريخ على نحو مافعل علماء الحديث .. اللهم الا قلة نادرة لم توف الموضوع حقه ، ولن تفيه الا بهمة عالية ، وتضافر جهود ، وتشجيع دول ، وبذل وسخاء علي البحث والتحقيق .. وذلك لتعدد مناحي الأدب والتاريخ عنها في علم الحديث الشريف .

ان الروايات في حد ذاتها ـ بصرف النظر عن صدقها او كذبها ـ تعتبر تراثا ضخما .. يلزمنا العناية به .. والافادة منه تعليلا وايضاحا ، استنباطا وقياسا ، وتمييزا .. ومن الغبن والاجحاف ان يترك القارىء العربي وغير العربي .. يتخبط في متاهات هذه الروايات ، لايدري صدقها من كذبها !! .

ان الضرر الذى يعود على تاريخنا وتراثنا .. ومن ثم مستقبلنا .. من بقاء هذه الروايات على حالها دون تحقيق واستخراج واستنتاج ، لهو أكثر مما يقدر المتهاونون اللاهون عن تركة امتهم وتاريخ حضارتهم !! .

وسنورد فيما يلي بعض نماذج من أكاذيب الرواة . لعل ذكرها يذكي الغيرة ، ويحث الحمية عند الباحثين .

١ ـ سبق ان اشرنا فيما مضى الي بعض اسباب الوضع في الحديث .. وانه بدأ حين تنازع المسلمون شيعا واحزابا .. فكان الانتصار للمذاهب من اهم الأسباب الداعية للوضع .. ولا بأس ان نذكر هنا بعض نماذج من اكاذيب رواة الحديث واساليبهم في التلفيق .. فمنهم من يختلق الحديث لأتفه الأسباب دون أدنى وازع من دين او ضمير .

روي عن احدهم .. وقد جاءه ابنه من الكتاب يبكي . فقال له مالك ؟ قال : ضربني المعلم . قال : لأخزينهم اليوم : حدثني عكرمة عن ابن عباس مرفوعا : معلمو

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٣ .

صبيانكم شراركم ، أقلهم رحمة لليتيم ، وأغلظهم على المساكين[1] .

وقد يكون التلفيق في الرواية عن غير قصد ومثال ذلك هذا النص : « دخل ثابت على شريك وهو يملي ويقول : « حدثنا الأعمش عن سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ ، وسكت ليكتب المستملي : فلما نظر الى ثابت قال : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار« وقصد بذلك ثابتا لزهده وورعه ، فظن ثابت انه متن ذلك الاسناد . فكان يحدث به »[2] .

ولقد اشتهر بعض هؤلاء الرواة ليس بالكذب والاختلاق فقط بل بالصفاقة ايضا : « ذكر رجل لمالك حديثا منقطعا فقال : اذهب الى عبدالرحمن بن زيد يحدثك عن ابيه نوح !! »[3] .

هذه نماذج من اساليب الوضع والاختلاق في الحديث ...

٢ ـ اما الوضع والاختلاق في روايات الأدب والتاريخ .. فحدث عن ذلك ولا حرج .. لقد بلغ الأمر ان سئم بعض الخلفاء من محبي الروايات التاريخية والأدبية أكاذيب أولئك الرواة فصاروا يعطون الجوائز عن صدق الرواية !!

قال نصيب الشاعر : دخلت علي عبدالعزيز بن مروان فقال : أنشدني قولك :

إذا لم يكن بين الخليلين ردة سوى ذكر شيء قد مضي درس الذكر

فقلت : ليس هذا لي .. هذا لأبي صخر الهذلي . فقال لي عبدالعزيز : لك جائزة على صدق حديثك !![4] .

وهذا الخبر يدل على مبلغ تردي وتهافت الرواة .. حتي ليفرح خليفة ويجيز أن صدقه شاعر في أمر بسيط جدا كهذا !! .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٥ .

(٤) الأغاني ج ١ ص ٣٣٢ .

ومن اساليب الرواة .. ان يختلق الراوي رواية عن نفسه في صغره .. يريد ان يرفع بها من شأنه في كبره من امثال علي بن الجهم قال : حبسني ابي في الكتاب ، فكتبت الي امي :

ياأمتـــاه ، أفديـــك من أم أشـــكو إليـــك فظاظـــة الجهم
قد سرح الصبيـــان كلهم وبقيـــت محصـــورا بلا جرم

قال : وهو أول شعر قلته ، وبعثت به الي امي . قال عيسي : فحدثت بهذا الخبر ابراهيم بن المدبر فقال : علي بن الجهم كذاب .. وما يمنعه .. من ان يكون ولد هذا الحديث ، قال هذا الشعر وله ستون سنة ، ثم حدثكم انه قاله وهو صغير ليرفع من شأن نفسه[1] .

وهناك الكثير جدا من الروايات الملفقة لأغراض شعوبية ، أو سياسية ـ وهذا هو الخطر الذي يجب التنبه له ـ ولو ذهبنا في سردها ، وضرب الأمثلة لها لملأنا صفحات .. فراجع مثلا الأغاني ج٩ ص٢٥٤ تجد خبرا طويلا عن ابي دلامة .. لاشك ان واضعه اراد الاساءة الي العرب .. واتهامهم بالجبن والغفلة .. وهذا مالم يكن وخاصة آنذاك ...

ومن نماذج اكاذيب الرواة .. ما أشار اليه ابن سلام في « طبقات الشعراء » قال : (وكان ممن هجن الشعر وافسده ، وحمله كل غثاء محمد بن اسحاق مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف . وكان من علماء الناس بالسير فنقل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر . انما أوتى به وأحمله . ولم يكن ذلك له عذرا فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، واشعار النساء فضلا عن اشعار الرجال .. ثم جاوز ذلك الي عاد وثمود !! »[2] .

وبامكاننا الآن الاقتصار علي هذه النماذج التي قدمناها علي أنها تكفى ، وزيادة ، في الدلالة علي مبلغ ماتردي اليه أولئك الرواة ، وما ركبوه من أفانين واختلاق وبهتان ... ذهب ضحيته القاريء ، والباحث لايدري اين يضع قدمه من هذا الزخم من الروايات الملفقة المبثوثة في كتب الأدب والتاريخ .. ولم تعش لها الجهابذة !!

مجلة العرب ع ٨ س ٣
١٣٨٩هـ

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ٢٢٥ .
(٢) راجع كتاب (صاحب الأغاني) للدكتور محمد احمد خلف ص (٥) .

كتاب « الأغاني »

ـ ٢ ـ

منذ بدأ اتجاهي لدراسة كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الاصبهاني .. والاطلاع على ما يقع تحت يدي من كتب أو دراسات عنه .. وجدت نفسي في خضم متلاطم الأمواج من الآراء عن هذا الكتاب الخالد .

وهي آراء .. يمسك بعضها برقاب بعض .. حينا في لطف وهدوء .. وحينا آخر في قسوة وعنف ..!!

لقد وجدت بعض الباحثين ممن تصدوا للتأليف أو الكتابة عن كتاب « الأغاني » وصاحبه يغالون مغالاة شديدة في تقويمهم للكتاب وصاحبه .

ووجدت الآخرين يميل منهم فريق الى العنف والقسوة على ابي الفرج .. وفريق آخر يميل الى الاتزان والعدل .. أو بالاصح يميل الى البحث العلمي المجرد .

والحق يقال انني وجدت ـ خير ما وجدت ـ مما وقع تحت يدي من مؤلفات عن أبي الفرج الاصبهاني ، وكتابه الاغاني .. كتاب الدكتور محمد أحمد خلف الله « صاحب الاغاني : ابو الفرج الاصبهاني الراوية » خير كتاب ، وخير مؤلف ، وخير باحث ودارس لهذا المؤلف الخالد .. ودعك من انه لم يستوف بحثه كاملا .. فهو ـ مثلا لم يتعرض لمصادر أبي الفرج إلا من نواح غير كافية أو غير مستوعبة كما لم يتعرض لها ـ أي المصادر ـ أي كاتب أو مؤلف ممن قرأت لهم ، ولكن بصرف النظر عن ذلك يعتبر ـ من وجهة نظري ـ احسن كتاب اطلعت عليه عن كتاب الأغاني وصاحبه .. لأن شخصية مؤلفه واضحة بارزة ـ وكدت أقول طاغية ـ من خلال النصوص التي أوردها ، ومن خلال فهمه لهذه النصوص .. ومن خلال تعليله لها ايضا .

ان الرجل قادر قدرة طاغية من خلال تصديه لهذا الموضوع .. فهو تصد لو بعث الاصبهاني لراعه منه ما راعني ..

وعلى هذا الكتاب اعتمدت بقدر وافر من الاعتماد في سبيل التأكد من وجهات النظر التي كونتها عن أبي الفرج وكتابه الأغاني من قبل !!

وكنت قبل ذلك قد اطلعت ـ مثلا ـ على كتاب « أبو الفرج الاصبهاني وكتابه الأغاني » للأستاذ محمد عبد الجواد الاصمعي .. المصحح بدار الكتب المصرية ، وهو كتاب على غاية كبيرة من الجودة . من حيث الجمع .. أقول من حيث الجمع ، ومن حيث الجمع فقط .. إذ قد جمع طائفة لا يستهان بها من النصوص والآراء لقدماء ومحدثين عن كتاب الاغاني .. وقد راجعت بعض ما يهمني من تلك النصوص في مظانها فوجدت الرجل دقيقا أمينا في النقل .

أما من حيث شخصية المؤلف ، ومجمل رأيه .. فهو على ناحية من الضعف مؤسفة .. إذ ما كنت أتصور ان من يستطيع القدرة علي هذا الجمع يكون بهذا القدر من الضعف والخذلان في رأيه !!

ولقد اطلعت أيضا علي كتاب « أبو الفرج الأصبهاني » للاستاذ شفيق جبري وهو كتيب صغير من سلسلة (نوابغ الفكر العربي) وهي في رأيي ـ مع احترامي للقائمين على شؤونها وللاستاذ شفيق جبري أيضا ـ سلسلة غايتها التجارية ، أو على الأقل الشعبية ، واضحة جدا .

واقل ما يدل علي رأيي هذا ضآلة حجم الكتاب ـ سواء كتاب شفيق جبري أو غيره من السلسلة ـ في نفس الوقت الذي تتصدى فيه كتب هذه السلسلة لموضوعات هامة ، ولكن لاشك ان هذه السلسلة تؤدى دورا لابأس به على مستوى الثقافة الشعبية .. و الثقافة العاجلة .

أما علي صعيد البحث فذلك ما لا ترقى اليه هذه السلسلة (نوابغ الفكر العربي) !.

وقرأت أيضاً كتاب « علوم الحديث ومصطلحه » للدكتور صبحي الصالح .. وهذا الدكتور يبدو لي شديد الاختصاص بموضوعه .. أو بموضوع كتابه هذا .. فانني سبق أن درست ـ علي طريقتنا .. القديمة ـ علم مصطلح الحديث ...

وبقدر ما كانت دراستي لهذا العلم دراسة قديمة ـ وان كنت ما أزال في مستهل شبابي .. ـ كان اعجابي فائقا بالدكتور صبحي الصالح . لالشيء إلا لأنه يعرض علم

(مصطلح الحديث) بأسلوب عصري جذاب .. لا يستغني عنه القدامـى .. ولا يملك الشبان أمثالي إلا التطلع اليه !!

وهذه ليست كل مصادري عن كتاب « الأغاني » .. فبالاضافة إلى الكتاب نفسه الذي قرأته مرات لا تقل عن اصابع اليد الواحدة ، ولا تزيد .. فضـلا عن مقـالات ودراسات . وعن أخبار مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ العربي .

ولست أدري ما الذي دعاني إلي الاستطراد في هذه المقدمة بهذا الشكل . إذا لم يكن الشأن هو انني من الذين لا يحملون درجات علمية ـ كماجستير ، ودكتوراه .. و . والخ ـ وأن هؤلاء الذين يحملون هذه الدرجات لا يؤمنون ـ أو لا يكاد بعضهم ـ يؤمن بغيرهم من خلق الله الذين ابتلاهم ـ سبحانه وتعالى ـ بحب الاطلاع والقراءة !!

وذلك بحجة ان الذين ليست لديهم مؤهلات أو شهادات لايستطيعون الخـوض في البحوث بطرق علمية ومنهجية ..!!

وأما بعد : فانني سأتجه فوراً الى موضوعي « الأغاني وصاحبه في ميزان الرأي بين قدماء ومحدثين . »

يذهب بعض الأدباء بكتاب « الأغاني » مذاهب بعيدة حيث يعتبرونه حجـة من الحجج المطلقة .. وخاصة فيما يسنده من الروايات .. فان الروايات المسندة شيء فاتن ، في نظر كثير من أغبياء الباحثين . أو المتأدبين .. أو ادعياء البحث والأدب ..

ومن ذلك قول صاحبنا المشار اليه آنفا الاستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي في كتابه « ابو الفرج الاصفهاني ، وكتابه الأغاني » ص ١٠٩ : (والاغاني لايعتبر اهم مرجع للتاريخ الادبي إلي القرن الثالث الهجري ، فحسب ، بل يعتبر كذلك أهم مصدر لتاريخ الحضارة الاسلامية للدولتين الأموية والعباسية)

وهذا القول من الأقوال التي ظاهرها الرحمة ، وباطنها العذاب .. فانه من الصحة بمكان ان يكون كتاب الأغاني من أهم مصادر تاريخ الحضارة الاسلامية للدولتين الأموية والعباسية .

ولكن ـ وهنا مربط الفرس ـ لايمكن لكتاب « الأغاني » أن يرقى إلي هذا المستوى بشكله الحاضر ، او بنصوصه أو رواياته المسندة أو غير المسندة .. فان ذلك كله مما يشول

في كفة البحث المجرد .. وإنما يستطيع الباحث الحديث أن يرقى بكتاب « الأغاني » إلى أكثر من هذا المستوي .. إذا هو تصدى لقراءته ، وفهمه ، ومقارنة نصوصه بغيرها .. وألم بمصادره وميوله واتجاهاته .. يستطيع من ثم ان يستخلص لنا منه العلم الجزيل بشكل يلائم الذوق العصري الحديث .

وارجو الرجوع الي ص ١٧٥ من نفس كتاب الأستاذ عبد الجواد الاصمعى إذ أن ما أسلفته هو بالقرب من رأى الدكتور طه حسين الذي يقول عنه الاصمعي فى نفس الكتاب : (أدامه الله ذخراً للعلماء والأدباء) ويقول الدكتور طه حسين ايضاً : أما نحن فأشد من هؤلاء القدماء طمعاً ، وأكثر منهم تحفظاً .. ولا تكفينا أسماء الثقات من الرواة [فما بالك بغيرهم ممن ليسوا من الثقة في شيء ؟] ولايكفينا جمال القصيدة وجودة المقطوعة ، وإنما نريد ان نتخذ كل شيء موضوعاً للبحث والنقد والتحقيق والتحليل ، ولا نكاد نفرق في ذلك بين الأدب والعلم ، ونحن محقون لأننا لا نبتغي من الأدب والتاريخ رواية الأعاجيب والعظات ، ولا ارضاء الذوق والميل الفني ، وإنما نتخذ الأدب والتاريخ مرآة للأمم وسبيلا الى فهم حياتنا العقلية والشعرية والى فهم ما خضعت له من ألوان النظم المختلفة[١] .

أجل هذا هو الرأي .. ولايمكن بدون ذلك ان يعتبر كتاب الأغاني : (أهم مصدر للحضارة الاسلامية للدولتين الأموية والعباسية) كما يقول الأستاذ الأصمعي ..

ثم هو نفسه ايضاً يضيف في كتابه ـ ص ٢٨٠ ـ قوله : (ويعتبر كتاب الأغاني أول المراجع التاريخية والادبية الكبيرة التي تغلب عليها صحة النقل ، وتحري الصواب) .

أنني لاأملك ، ولا استطيع ان املك إلا العجب من أمثال هذه الأقوال (صحة النقل وتحري الصواب) مع ان مؤلف « الأغاني » نفسه لا يزعم لنفسه .. هذه الصحة ولا ذلك التحري .. بل هو ـ أى الاصبهاني نفسه ـ قد نبه وأكد على أنه يحرص في كتابه علي جمع كل ما قيل في بابة كتابه .. لايكاد يهمه صدق ما يجمع من كذبه .. فانما هو راوية .. ولم يكن له شأن المؤرخ في (صحة النقل وتحري الصواب) ..

---

(١) راجع نفس الكتاب ص ١٧٦

وقد نص في أكثر من موضع من كتابه أنه يكره أن يخلو الكتاب من شيء قد رواه ودونه الناس [1] .

ونص علي أنه : (يكره أن يؤثر عنه في هذا المعني ما يبقى على الأيام مخلداً ، والي علي تطاولها منسوبا ، وان كان مشوباً بفوائد جمة ، ومعان من الآداب شريفة[2])

وإذا كان ينبه أحياناً إلي أن هذا الخبر أو ذاك : (الصنعة فيه واضحة أو مكذوب) فقد قلنا في بحث سابق : انه انما يفعل ذلك لا لغاية التحقيق ، وتحري الصواب بقدر ما هو إبراز لمكانته في علم الرواية ـ وهو بحق كذلك ـ ولكن لم يكن من غايته في كتاب الأغاني سوي (الامتاع والمؤانسة) وان ما يأتي : (في كل فصل من ذلك بنتف تشاكله ، ولمع تليق به ، وفقر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلاً بها من فائدة إلي مثلها ، ومتصرفاً فيها بين جد وهزل ... الخ[3])

وأشار كذلك في مقدمته انه يعرف أن : (في طباع البشر محبة الانتقال من شيء إلى شيء ، والاستراحة من معهود إلي مستجد ، وكل متنقل اليه أشهى إلى النفس من المنتقل عنه ، والمبتكر اغلب علي القلب من الموجود[4])

وارجو ان تضعوا خطاً تحت العبارة الأخيرة وهي (والمبتكر أغلب على القلب من الموجود) ضعوا خطاً .. ثم اقرأوا معي هذه الفقرة من كتاب « تاريخ الأدب العربي » للمرحوم مصطفى صادق الرافعي ص ٢٨٣ ج ١ ـ :

(أما القصاص فإنهم كانوا يميلون وجوه القوم اليهم ، ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغرائب والأكاذيب من الأحاديث ... وللقوم في هذه الفنون الأكاذيب العريضة ، والاخبار المستفيضة)

وان الذي لاشك فيه ان الاصبهاني قد حاول جاداً أن يميل وجوه القوم اليه ـ خاصة وان باعث تأليفه كتابه كان بطلب من رئيس ـ واتى بمناكير وغرائب واكاذيب من

(١) راجع مثلا ص ١٧ ج ١ من الأغاني .
(٢) ج ١٨ ص ١٦١ الأغاني
(٣) من مقدمة الاصبهاني .
(٤) ج ١ ص ١٥ الاغاني .

الأحاديث .. ينص هو نفسه علي كذب بعضها .. ولكنه يوردها لا لشيء إلا لأنها قيلت .. إلا لأنه يحرص على الا يفوته أي شيء مما قيل ، وان كان كذبا .. ذلك لأنه يحرص ان يستدر ما عند القوم ـ على طريقة القصاص ـ ولو بالأكاذيب العريضة والأخبار المستفيضة .!!

وهل هناك أكثر استفاضة من روايات ابي الفرج وأخباره ؟

ثم ان ابا الفرج من المتفوقين في الاسلوب ، والحبكة ، والابداع الفني والادبي لذلك أجد نفسي ملزما بالاشتراك في الرأي مع الدكتور أسد رستم حيث يقول : (ولا نرى بداً في هذه المناسبة من مصارحة المؤرخ المستجد بأن شكنا في عدل الراوي يتناسب أحيانا كثيرة مع تفوقه في الابداع الفني والأدبي .. فكلما ازداد الراوي ابداعا في اسلوبه الادبي ازددنا شكاً في عدله[1] !!

ترى مَن مِن الرواة يملك الابداع في الاسلوب الادبي كما يملك الاصبهاني ؟؟

والحق انه لايمكننا مؤاخذة الاصبهاني بسبب ذلك .. فهو قد تبرأ .. بل طالبنا بعدم مؤاخذته بهذه الأسباب ، ما دام قد نبه الى طريقته في جميع الكتاب وتأليفه .

ولكننا نورد هذه النصوص ، والأقوال ، والآراء بقدر ما نريد أن ننظر في كتاب « الأغاني » نفسه .. كأثر بارز من تراثنا الضخم .. تلزمنا دراسته ولا شيء يمنعنا من ابداء الرأي فيه .

وبين ايدينا الآن ـ بالاضافة الى ما تقدم ـ طائفة من الآراء لقدماء ومحدثين ممن لهم ثقل في ميزان الرأي .. وسأحاول ابداء رأيي متى لزمني ذلك ـ في سبيل المقارنة والاستنتاج للحصول على نتيجة تستوجب إبداء الرأي .

١ ـ قال النوبختي فيه ، وهو من معاصريه : (كان أبو الفرج الاصفهاني أكذب الناس . كان يدخل سوق الوراقين ، وهي عامرة بالدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئا كثيراً من الصحف ويحملها الي بيته ثم تكون رواياته كلها منها [2] .

(١) كتاب مصطلح التاريخ ص ٦٥ .

(٢) ص ١٤ ـ ١٥ كتاب (ابو الفرج الاصفهاني) لشفيق جبري .

وقد علق شفيق جبري علي ذلك بقوله : (يسلخ صاحب الأغاني خمسين سنة من تأليف كتاب الأغاني .. ويتبع فيه الصدق ، وشدة التوقي علي قدر الامكان . فيجهد نفسه في البحث عن أصح الأخبار والروايات والأحاديث ، ويتبرأ فيها من كل عهدة ويحاسب الرواة على الأكاذيب والخطأ .. يؤاخذهم بكل تحامل وحمق وسب وشتم وتجهيل فيجيء أحد النقاد فيقول : انه أكذب الناس دون أن يكلف نفسه بيان موطن من مواطن هذا الكذب)[1] .

فأما قول النوبختي : (كان أبو الفرج أكذب الناس) فإننا لا نملك من الأدلة ما يدحض هذا الزعم أو يثبته بشكل قاطع ، وأما أن روايات الأصبهاني كلها من الصحف التي يشتريها من الوارقين المملوءة دكاكينهم بالكتب الخ .. فهو قول يكاد يمس أنف الحقيقة .. وذلك لأسباب أقلها أننا أثبتنا فيما سبق من هذا البحث ان الاصبهاني كان يحرص الحرص كله ألا يفوته شيئا مما قيل من بابة كتابه عن صدق أم كذب .. ولهذا لايمكن أن يضيره ـ وهو بجوار الصاحب بن عباد ـ شراء الصحف الكثيرة .. وأن ينقل من رواياتها الشيء الكثير .. فتلك هي عادة القوم يومئذ .. ولم تنشط سوق الوارقين إلا من هذه العادة . وذلك بعد أن أستفاض تدوين الرواية .. وأصبحت تقدم على أطباق من فنون الأساليب والتنميق والتزويق للخلفاء ، والرؤساء ، وسراة القوم !!

ثم ان الأصبهاني نفسه يشير في كتابه أكثر من مرة بقوله : (نقلت من كتاب كذا .. أو نسخت كذا) ليس في كتاب الأغاني فحسب بل فى كتابه « مقاتل الطالبين » : ايضا يقول الاستاذ السيد احمد صقر محقق وشارح هذا الكتاب في المقدمة (وقد أتى أبو الفرج بروايات مدخولة وأحاديث موضوعة لم يعقب عليها . ولكنه أمرّ نقده على بعضها الى أن يقول : وكنت إذا ما رأيت أبا الفرج ينزع نزعة مسرحية نقلت من أقوال ثقاة المؤرخين ما يرجع الحق إلي نصابه ، ويرد التاريخ إلى محرابه)[2]

ونحن الآن بين أمرين أهونهما شرّ ، الأمر الأول : ان يأتي الأصبهاني بهذه الروايات المدخولة من عنده فيكون إذن كما قال عنه النوبختي . والأمر الثاني : أن يأتي بهذه

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحات .

(٢) من مقدمة احمد صقر لكتاب (مقاتل الطالبيين) طبع دار احياء الكتب العربية .

الروايات المدخولة من سوق الوارقين .. وهذا ما يؤيد قول النوبختي أيضا بأن معظم روايات الاصبهاني من الكتب التي يشتريها من سوق الوراقين ..

وأما تعليق شفيق جبري الذي أوردناه انفاً فإنه لو لا أن مثله وأمثاله من الآراء من الحوافز التي دفعتني لكتابة هذا البحث .. إذ وجدت لشفيق جبري أضراباً وأشباها من اخواننا الأدباء .. يذهبون بكتاب الأغاني مذاهب بعيدة لو بعث الأصبهاني من قبره لهاله منها ما هالني !!

لولا ذلك .. ولولا ما يقتضيه البحث لما أوردت رأي شفيق جبري فإن فيه مغالاة شديدة بغير قليل من التسرع .. فالاصبهاني نفسه لم يقل قط أنه تتبع الصدق وشدة التوقي .. بل قال انه يحرص علي جمع كل ما قيل ، لايهمه صدق ذلك من كذبه .

أما أنه يحاسب الرواة والأكاذيب على الخطأ .. فإن ذلك لم يحصل إلا في مناسبات معينة من كتابه ورواة بذاتهم .. ومع ذلك مع نقده ومعرفته لهذه الروايات الكاذبة الزائفة أوردها في كتابه لا لشيء إلا لأنه يحرص علي جمع كل ما قيل ..

أما أن يفاخر شفيق جبري بأن الاصبهاني كان يؤاخذ الرواة بكل تحامل وحمق وسب وشتم وتجهيل .. فإن ذلك ليس من التبرئة في شيء للاصبهاني .. بل هو الادانة كل الادانة .. والا فمتي كان التحامل والحمق والسب والشتم والتجهيل مما يؤخذ به في مجال النقد ؟ ومتي كان التحامل والحمق والسب والتجهيل من وسائل البحث ؟ أو من أدوات النقد ؟!

ومما هو أطم في رأي شفيق جبري انه لم يورد مثلا واحداً علي حكاية (تتبع الصدق وشدة التوقي) عند أبي الفرج .. الأمر الذي لايمكن معه الأخذ برأيه .. ولكن لاشك أن في مثل هذه الآراء المتسرعة فتنة كبيرة على عامة كبيرة من القراء .. فإنه مادام أن الأصبهاني على درجة من تتبع الصدق ، وشدة التوقي .. يجب أن تكون جميع المهازل التي وردت في كتابه صحيحة دون أن نبحث عن أصلها وفصلها . فضلا عن ظلها وذلك ما لا يقول به باحث .

٢ ـ يقول ياقوت الحموي [١] : (لعمري إن هذا الكتاب لجليل القدر شائع الذكر ،

(١) ج ١٣ ص ٩٨ معجم الأدباء ط مصر (دار المأمون) .

جم الفوائد ، عظيم العلم جامع بين الجد البحت ، والهزل النحت الخ) .

والحق أن ما قاله الحموي يضرب في منطقة موغلة من كبد الحقيقة ويهمنا بصورة خاصة ـ قوله : (جامع بين الجد البحت ، والهزل النحت) فأما الجد البحت فلو توفر باحث أو أكثر علي دراسة الجوانب الجدية في كتاب « الأغاني » ، ومقارنتها بما ورد في كتب ثقاة المؤرخين ، أو ثقاة الرواة .. أو عن طرق أخرى ليس أقلها مصادر الكتاب ، أو تحري النص .. أو عدل الراوي .. وهل أجاز أحد من رجال الحديث روايته أم لم يجيزوا .. فضلا عن وسائل كثيرة لايعنينا هنا ذكرها .. وبهذا وحده نستطيع التثبت من (الجد البحت) في كتاب « الأغاني » .

أما (الهزل النحت) في كتاب الأغاني .. فحدث ولا حرج .. فهو سدة الكتاب ولحمته .. ومع ذلك فإنه ـ أي الهزل النحت ـ يمثل في الواقع ـ شئنا أم أبينا ـ ظلا من ظلال الحقيقة يجب ألا يستهان به ..

ان الأساطير نفسها ـ وهي بجرد أساطير ـ لها في كثير من المواقف ظل حقيقة .. فما بالك بروايات مسندة ـ ودعك من أهمية الاسناد ـ لابد أن يكون لها نصيب من ظل الحقيقة أكثر ..

هذا النصيب من ظل الحقيقة : يجب أن يكون أكبر دافع لرجال البحث في لغة الضاد لاستقصائه وتمحيصه ، وإدارة الرأي فيه .. ولكن واأسفاه : ان هناك وفرة من المفاهيم (القمقمية) تحول دون كثير من ذلك وان كان الرأي المعتدل والحجة المنطقية المتزنة .. لابد أن تحطم شيئا من ذلك !!

واننا لفي أمس حاجة إلي دراسة تراثنا ، وتقديمه لأجيالنا بصورة صحيحة صريحة منقحة .. مجردة تجريداً علمياً بعيداً عن قصور الأفهام ، وانغلاق العقول .. فإن تراثنا لم يبق منه إلا الصورة التاريخية المجردة ـ وهي صورة مشرفة والحمد لله ـ ولكن قبل أن نقنع غيرنا بقالبها المنطقى الحديث .. يجب ان نصنع نحن هذا القالب ونؤمن به !

٣ ـ يري العلامة ابن خلدون ـ وانا هنا ـ انقل هذا النص عن كتاب محمد عبد الجواد الاصمعي « أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني » ـ ص ١٦٨ : (يقول العلامة ابن خلدون : ولعمري انه ديوان العرب ، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل

فن من فنون الشعر ، والتاريخ ، والغناء ، وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب في ذلك ، فيا نعلمه ، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ، ويقف عندها)

ورأي ابن خلدون له ثقل كبير في ميزان الرأي وان كنت ـ شخصيا ـ لا أذهب مع الذاهبين بابن خلدون أيضا إلي بعيد .. فانك تلمس في مقدمته وغيرها .. ما لو أخضع لصهر البحث لوجد انه يحتاج ـ بدرجة لا تقل شأنا ـ إلى إعادة النظر في أرائه ـ ولا أقصد رأيه في أبي الفرج فذلك شيء آخر !!

ومع ذلك فأنا لا يهمني الآن سوي النظر في رأيه في أبي الفرج ، وكتابه « الأغاني » .. فذلك هو موضوع بحثي هذا .. فأن يكون كتاب الأغاني (ديوان العرب وجامع اشتات المحاسن ، التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر ، والتاريخ ، والغناء ، وسائر الأحوال) لاشك ان في ذلك مبالغة كبيرة .. أقول كبيرة ..

والا فان كتاب « الاغاني » يحتوي علي نصيب لا يستهان به من كل ذلك ـ وهذه حقيقة ـ ولكن ان يكون كتاب الاغاني وحده (ديوان العرب) فأنا أتساءل : أين يجب أن يوضع من التراث العربى ـ شعراً أو نثراً ـ ما لم يرد في كتاب الأغاني ؟

وكتاب الأغاني ـ كما هو معروف ـ لم يحوِ كل الشعر العربي فى الجاهلية وصدر الاسلام .. أي قبل تأليف الأغاني نفسه .. ذلك الشعر الذي هو (ديوان العرب) ذلك ما لاتحتويه كلمة ابن خلدون بأنه ـ أي كتاب الأغاني ـ (ديوان العرب) .. فتلك أولى المبالغات التي لاتخلو منها مؤلفات القدماء وتعبيراتهم . !!

وأما ما يراه ابن خلدون من أن كتاب الأغانى : (جامع اشتات المحاسن التي سلفت لهم ـ أي ، العرب ـ في كل فن من فنون الشعر ، والتاريخ) فذلك ما ينطبق عليه ما قلناه آنفاً .!!

وأما قوله (والغناء) فذلك ما لا أملك الا أن أثبته كما هو لأنني لا أجد بين يدي من الأدلة ما يدحضه أو يثبته .!!

وأما قوله ـ أي ابن خلدون ـ (وسائر الأحوال) فتلك مبالغة مفرطة .. وإلا فأين نذهب بالمؤلفات التي وصلت إلينا مطبوعة أو مخطوطة .. أو التي لم تصل في (سائر الأحوال)ـ تلك ـ لاشك ـ مبالغة مفرطة ، وغير متحفظة نربأ بابن خلدون عنها ولكنها

صدرت منه مع ذلك كغيره من المفرطين ، والمفرطين ـ بتشديد الراء وكسرها ـ من القدماء
والمحدثين !!

قد يقول قائل : إن هذا تطاول مني علي ابن خلدون وامثاله . أما أنا فأقول انه لم
يقتلنا في دراسة تراثنا وتاريخنا الا شيوع تهمة (التطاول) بيننا .. والا فما قيمة الرأي إذ
لم يقف موقف النقاش مع ابن خلدون أو غيره ؟.

ثم يهمني بعد ـ نزولا عند بابة هذا البحث ـ أن نقف عند قول ابن خلدون : وهو ـ
يقصد كتاب الأغاني طبعا ـ (الغاية التي يسمو اليها الاديب ، ويقف عندها)

والشيء الذي يهمنا بالدرجة الأولى من وقفتنا هذه عند قول ابن خلدون هذا .. هو
انه ـ وهو المؤرخ المشهور ـ لم يقل ان كتاب الاغاني هو الغاية التي يسمو اليها المؤرخ
ويقف عندها .. بل قال . انه الغاية التي يسمو اليها الاديب ويقف عندها ..

ولا شك ان الغرض معروف بين ما يجب أن يقف عنده المؤرخ .. وبين ما يجب أن
يقف عنده الاديب ..

التاريخ العربي ومصادره

ذلكم هو الجزء الثاني من سلسلة موسوعة (العرب في أحقاب التاريخ) التي يزمع مؤلفها الفاضل الاستاذ السيد أمين مدني مواصلة نشرها تباعا .

وقد أصدر منها الجزء الاول بعنوان (التاريخ العربي وبدايته)

وهذا هو الجزء الثاني وقد صدر حديثا ويقع في ٦٤٠ صفحة من القطع المتوسط طبع بدار المعارف بمصر في ورق جيد وطباعة حسنة .

أما محتويات الكتاب فهي ١٢ فصلا مقسمة الي ابواب وذلك غير المقدمة وكلمة الاهداء وآراء بعض الادباء في الجزء الأول من الكتاب والتعرف الموجز بالمؤلف .

فكرة التاريخ ومصادره

بدأ الاستاذ المؤلف بعد التوطئة ـ بفصل (فكرة التاريخ ومصادره) استعرض فيه « سقم نصوص التاريخ العربي قبل الاسلام » وناقش موضوع النصوص الاسرائيلية وأشاد بجهود رواد التاريخ الذين بدأوا التدوين في صدر الاسلام وحرصهم علي سماع كل خبر ونقل كل نص .

كما تطرق لموضوع الرواية العربية عن أقوام غابرين مثل عاد وثمود الخ .

وأكد في النهاية أن « مسلسل التاريخ العام مازال تنقصه حلقات وسيستمر كذلك ما لم يتصد لتأليف تاريخ عام ، جهد جماعي ترعاه دولة من الدول العربية الغنية ، تهييء لهذا الجهد ، التفرغ والوسائل القادرة علي جمع النصوص وتحقيقها وربط حلقات البحوث المتناثرة في مؤلفات لاتجمعها لغة واحدة ولا يوحدها هدف واحد الى غير ذلك مما يحتاج اليه تأليف موسوعة تاريخية مرتبطة الحلقات » .

التاريخ في القرآن

وتحت هذا العنوان نقد وتفنيد لاقوال بعض المستشرقين وشكوكهم الناشئة أساسا عن جهلهم بخصائص اللغة العربية وخلطهم بين النص القرآني وتفسير المفسرين واعتسافهم القول بان « صحة ما جاء فى القرآن تتوقف علي وجود أصل له فيما سبقه من كتب مقدسة » وأمثال ذلك من أقوال وأباطيل .

وقد اجتهد السيد المؤلف في دحض هذه الاباطيل والشكوك وأشار الى أن الكثير من الاخبار « التي انفرد بذكرها القرآن والتي كانت الى وقت قريب موضع شك المستشرقين أصبحت أخبارا ذات قيمة في البحوث التاريخية بعد أن اكتشف الباحثون آثارهم في شمال الحجاز وفي اليمن » .

واشار المؤلف بعد ذلك الى نقطة مهمة وهي : ـ

« أن هدف القصص القرآني لا يقتضي تفصيل أخبار الماضي وتتبع أحداثه مثلما تفصل التواريخ .. فالقصص القرآني ذكرى وموعظة » ..

والواقع أن الاستاذ المؤلف قد أجاد الدفاع عن القرآن الكريم بمنطق سليم وحجة ناصعة .. الا أنه عندما عرج على موضوع اثبات الحفريات لأخبار انفرد القرآن بذكرها مثل أخبار عاد وثمود .. لم يتوسع في تفصيل ذلك وكان البحث يقتضي هذا التوسع بالضرورة للأسهام فى المزيد من دحض افتراءات المفترين .

الأمثال القرآنية

وفي أقل من اربع صفحات تحدث الاستاذ المؤلف عن الامثال في القرآن الى أن قال :

« ولقد وجد الباحثون في أمثال القرآن ـ على اختلاف عقولهم ـ فيضا من المعاني المشرقة فأخذ كل باحث ينظر اليها بمنظاره ويحلق معها بقدر طاقته العلمية ..

فمنهم من لم يخطيء في فهم المثل والقصة والقصص وجانب التوفيق الذين قصر ادراكهم عن فهم مقاصد القرآن في مثله وفي قصته وفي قصصه » .

ولكنه هو نفسه ـ أي المؤلف ـ لم يقل لنا ما هو الفرق بين المثل والقصة في القرآن وهذا من أوليات مقتضيات البحث .. كما أنه لم يعرف المثل في القرآن تعريفا علميا .. بل اكتفى ببعض الاشارات العابرة الى بعض الامثلة في القرآن دون أن يحدد ماهية المثل نفسه وهذا أيضا من أوليات مقتضيات البحث .

وتحت عنوان (النص القرآني اصدق النصوص) لم يعقد المؤلف أية مناقشة مع المتشككين في النص القرآني بل اكتفى بما سبق ولم يقدم أية أدلة جديدة غير ما قدمه تحت عنوان القصص القرآني والقصة في القرآن فلماذا عقد هذا الباب إذن ؟ وما حاجته الى إضافة صفحتين بعنوان مستقل دون أن يناقش ويبرهن ويعلل ويدلل ؟

ومع ذلك ينتهي الى القول : « وبعد فأخالك ايها القاريء قد عرفت وجهة البحث في قصص القرآن وعرفت اني لست من الذين يشكون في خبر من اخبار القرآن » .

فاما انا قد عرفنا بانه لا يشك في خبر من أخبار القرآن فذلك حق .. جزاه الله خيرا وزاده إيمانا وثباتا .

وأما ان القراء قد عرفوا وجهة البحث في قصص القرآن فأنا من القراء الذين لم يعرفوا هذه الوجهة من خلال بحث المؤلف ، وذلك لسبب بسيط هو أن المؤلف نفسه لم يحدد أية وجهة للبحث في قصص القرآن وانما عقد مناقشات مع بعض المستشرقين المتشككين ومجرد المناقشة وسرد الأدلة لا يمكن أن تشكل هيكلا أو منهجا لوجهة البحث فلكل وجهته في البحث هو موليها .

الأسفار مصدر من مصادر التاريخ

وتحت هذا العنوان تطرق الاستاذ المؤلف الى موضوع شائك هو موضوع تحـريف التوراة .. هل هو بالتأويل أم بالتبديل وأشار الى قول ابن عباس رضى الله عنه ، « ان تبديل الكلم عن مواضعه ، تحريفه بالتفسير والتأويل اللذين اختلطا بنص التوراة بصورة جعلت من العسير تمييز ما هو من توراة موسى مما هو من تفسير احبار اليهود » .

ثم اشار الى رأي ابن خلدون ووصفه بالتحمس لما في الاسفار من تاريخ .

كما اشار الى أن اليهود قد « استغلوا موقف المسلمين المعتدل من الأسفار واقبالهم على ما يظنون انه جاء فيها اخبار الامم التي ذكرها القرآن وعن انبائها فنسبوا قصصهم الشعبية الى الاسفار فنقلها البعض بدون تحقيق وحققها الاعلام فرجعوا عن ما ورد عنها كما ثبت عن ابن عباس وغيره » .

وقد انتهى المؤلف الى ارجاع اسباب التأويل والتحريف الى الدوافع العنصرية والى استغلالهم اقتناع المسلمين بالخبر الذي يسند التوراة والى تعدد اللغات واختلاف الاسلوب باختلاف البيئة والزمن مما نشأ عنه تحريف المدونين والمفسرين .. ثم استشهد بطائفة من آراء المؤلفين ثم خلص فى النهاية الى نتيجة هي « أن الاسفار يهودية ومسيحية هي في مقدمة نصوص التاريخ القديم .. لها قيمتها في تاريخ البلاد العربية الجاهلي بالنسبة لانتشار الجاليات اليهودية والمسيحية في ارجاء البلاد العربية » .

ثم لا ينسى أن يشير الى « أن الاسفار ككل مصدر من مصادر التاريخ عرضة للشك ما خلا تلك النصوص التي تثبت عصمتها » .

ولست ادري كيف يمكن اثبات هذه العصمة ؟

ثم كأني بالمؤلف قد فاته أن يشير الى نوعية النصوص التي يمكن الركون اليها في الاسفار : مثلا إذا كان النص يتعلق بمجرد وصف جغرافي كتحديد موقع أو ما شابه ذلك فلا بأس من قبوله على أساس أن الدوافع العنصرية أو الدينية لا يمكن أن تتدخل في تحديد موقع مثلا أو نحو ذلك .. أما إذا كان النص يتعلق بالديانات فلابد من الحذر الشديد .. ولكن بدلا من أن يفعل المؤلف ذلك ويفصل فيه القول اكتفى بقوله « إن قيمة الخبر الموجود في الاسفار ـ في نظر المؤلف ـ تقدر علي أساس تاريخ الخبر وأن على كل مؤرخ الا يأخذ خبرا ما لم تثبت صحته سواء كان الخبر من الاسفار أو من غيرها » ولست ادري ماذا يقصد الاستاذ بقوله ان قيمة الخبر الموجود في الاسفار تقدر علي أساس تاريخ الخبر فاذا كان المقصود هو حداثة الخبر أو قدمه فكم لعمري عمر الاسفار ؟ أليست شديدة الايغال في التاريخ ؟!

وكان من حق منهج البحث مادام قد اعتبر الاسفار مصدراً من مصادر التاريخ

العربي أن يحدد نوعية الاخبار التي يمكن الأخذ بها وان يفصل القول عن مواطن التبديل والتحريف في الاسفار الخ .

المؤلفون في التاريخ قبل الميلاد وبعده

وليعذرني القارىء إذا مررت بهذا الفصل مرورا سريعا مع انه يقع في ٢٣ صفحة ذلك لأنه ليس مما يسهل معه التلخيص الا أن أهم ما فيه قائمة المؤرخين الاوائل التي نقلها الاستاذ عن جرجي زيدان ثم آراء واشارات نابهة للمؤلف عن فقدان الكثير من المؤلفات القديمة وعن أن المؤرخين القدامى لابد وانهم كانوا يملكون نصوصا تاريخية ذهبت مع ما ذهب على غير ما يعتقده بعض المشككين من أن تاريخهم مجرد خرافات .

وكذلك الاشارة الى القدراتَ العمرانية التي كان يملكها القدامى وتسخيرهم الطاقات البشرية الهائلة من أجلها الى غير ذلك من الاشارات والآراء القيمة الذكية الى أن يقول في النهاية :

« وخليق بنا أن لانشك في شيء مما في التراث القديم أو نصدقه مالم تتوافر أدلة الشك وشواهد التصديق » .

ولست ادري ـ علم الله ـ كيف يستوي الجمع بين عدم الشك وعدم التصديق في آن واحد أهو ما يسمي بالتجريد ؟ .

أن مثل هذه العبارات المطاطة خطرة جدا علي ناشئة القراء وخاصة في مجال التاريخ حيث ينبغي أن تكون كل كلمة فى موضعها تماما بعيدا عن صناعة الانشاء .

أساطير الأولين في العصر الجاهلي

أستهل الاستاذ المؤلف هذا الفصل بمناقشة فورية لآراء (كرد علي ورشيد رضا وتوماس كارليل) وغيرهم في هذا المجال .

أما دراسة العصر الجاهلي نفسه فقد أحال القراء الى الجزء الاول من كتابه (وإذا

كان من حق البحث التقصي فان التقصي لايلزمنا العودة الي ما سبق في الجزء الاول من هذا الكتاب عن الحياة العربية في عصور الجاهلية القديمة) .

ولقد استعرض الأستاذ طائفة من آراء المؤرخين التي تقول أولا تقول بان العرب في الجاهلية كانوا يجيدون القراءة والكتابة أولا يجيدون وانتهى في ذلك الي (أن أكثرية المتقدمين وأكثرية المتأخرين تؤكد أن العرب في جاهليتهم لم يكونوا جميعا يجهلون القراءة والكتابة) وان معني الامية التي يوصف بها العرب هو ما قاله ابن عباس في تفسيره لقوله تعالى : (ومنهم أميون) قال : قال سماهم أميين لجحودهم كتاب الله ورسوله .

(وقال ابن زيد عندما فسر قوله تعالي : « **هو الذي بعث في الاميين رسولا** » قال : انما سميت أمة محمد ﷺ الاميين لانه لم ينزل عليهم كتاب) .

والواقع ان الاستاذ قد اسهب وأفاض في موضوع هذا الفصل وأوفاه حقه من الشواهد والادلة والشرح والتعليل .

وقد انتهى الى ان (على المؤرخ الذي يحاول الوصول الي مصادر القصص الجاهلي وأساطيره أن يوطن نفسه على الصبر والاناة ويفتش عن الوثائق التاريخية في الاخبار القصيرة والكلمات العابرة التي تأتي في الكلام عن التاريخ الاسلامي وفي الحديث عن الأدب الجاهلي وأخبار شعراء الجاهلية وأيام العرب وعليه أن يجرد الأخبار التي يطلع عليها من الخيال ويستخلص الحقائق من المبالغات التي امتزجت بها وأنه لعمر الحق أمر جد عسير) .

وانه لعمري أنا أيضا أن الدراسات التاريخية في الاجتماع والسياسة والأدب في العصور الجاهلية والاسلامية أيضا لاتزال متخلفة أقبح ما يكون التخلف على الرغم من بعض المحاولات والجهود الفردية هنا وهناك .

فاما بالنسبة للعصور الجاهلية فان قلة أو شبه انعدام المصادر العربية المدونة لهذه العصور وقف حائلا صعبا بين الباحثين وخوض هذا الميدان أو هذه الصحراء القاحلة وذلك على الرغم من أن الباحث الاجتماعي مثلا يستطيع بالفعل وان كان بغير قليل من الجهد أن يستخلص من القرآن الكريم ومن الأسفار ومن الشعر الجاهلي نفسه وأخبار الجاهلية وأيام العرب ملامح واضحة المعالم أو قريبة من ذلك للمجتمعات الجاهلية .

وكذلك الشأن بالنسبة للتاريخ الاسلامي تاريخا وادبا واجتماعا وسياسة فانه على الرغم من وفرة مصادره الهائلة الا أن الدارسين له مازالوا يتخبطون في دياجير أمهات الكتب والموسوعات القديمة غير المنظمة دون ان يستخلصوا من كل هذا الفيض ما يشفي الغلة ويروي الغليل ويتلاءم مع ذوق العصر بطرقه ومناهجه الحديثة .

ولكن عذرهم أن جهودهم مبعثرة وفردية وإنما تنهض بمثل ذلك في غير بلادنا الجامعات والمؤسسات العلمية الكبرى ومجامع اللغة والعلوم وتعين علي كل ذلك الحكومات بالعطاءات والأموال الجزيلة .

الشعر الجاهلي وصلته بالتاريخ

وقد استعرض المؤلف في هذا الفصل أسباب اهتمام رجال التفسير والحديث بالتاريخ الجاهلي ومشاركة القصيدة العربية في أحداث الجزيرة وقوّم ما جمعه الرواد من الشعر الجاهلي ولغته واخباره وأهمية تراجم رواد الشعر الجاهلي .

وليس لي من تعليق الا على موضوع تقويم ما جمعه الرواد من الشعر الجاهلي ولغته وأخباره كان يحتاج ذلك الى فصل خاص لا نصف صفحة كما فعل الأستاذ ، وهو لا يجهل القيمة الكبرى والأهمية القصوي للشعر الجاهلي ليس فقط لاعتباره من المصادر المهمة للتاريخ العربي بل أيضا لكونه مما قد استعين به علي التفسير والحديث كما هو معروف وكما اشار الى ذلك المؤلف نفسه في مكان آخر .

وأما أهمية تراجم رواد الشعر الجاهلي فهي بالفعل أهمية قصوى بل ضرورة ملحة .

إن رواة الحديث الشريف قد انبرى لهم الأفذاذ من العلماء الأجلاء الذين وضعوا للرواية أصولا وقواعد ومصطلحات وميزوا بذلك الصحيح من غيره .

أما رواد التاريخ والشعر والأدب والقصة فلم ينبر لهم الأفذاذ ربما لانشغال المسلمين في بداية التدوين بالتفسير والحديث وايضا بالجهاد والفتوحات الخ .

ولذلك أو لغيره لازلنا نجهل الكثير عن هؤلاء الرواة مع أن كثيرا من أخبارهم مبعثرة في أمهات الكتب فتراجمهم وجمع اخبارهم الآن ضرورة ملحة كما قلت ولكن على أن تكون

تراجم شاملة يعرف منها مثلا قبيلة الراوي حتى نكون على حذرمنه حين تكون روايته عن قبيلة أخرى منافسة أو معادية مثلا .

ونعرف مثلا أيضا : هل روى الحديث وماذا قال عنه رجال الحديث وما مدى ثقتهم في أمانته ؟ فان كثيرا من رواة الادب والتاريخ والقصة والشعر قد رووا الحديث الشريف أيضا .. ومنهم من صحت روايته ومنهم من لم يؤخذ بروايته .

ونعرف مثلا العصر الذي عاش فيه الراوي فاذا كان في العصور التي ازدهرت فيها الرواية واصبحت مصدرا من مصادر التكسب والرزق .. وجب ان نكون منه علي حذر فكم من قصص قد اصطنعت وكم من روايات كاذبة قد لفقت !!

وباختصار فان تراجم الرواة يجب أن تحتوي على أدق التفاصيل عنهم .. لا كما نشاهده في كثير من التراجم حديثها والقديم .

ولاشك ان مثل هذه التراجم ستخدم الباحثين أجل خدمة .

من المدينة بدأ التاريخ وتدوينه في العصر الاسلامي

وهذا فصل من خيرة فصول الكتاب ولا غرو فالاستاذ المؤلف من أبناء المدينة المنورة وأهل كل بلدة أدرى بشعابها وألصق بشئونها وشجونها فما بالك اذا كانت هذه البلدة هي المدينة المنورة وما بالك اذا كان المؤلف هو الاستاذ أمين مدني ؟ ثم يعقد فصلا من الفصول يتعلق بالمدينة هل يمكن أن يكون هناك أي مجال لتعليق من امثالي من ناشئة النقد ؟ على ان مصادر البحث موفورة أيضا .. وهذا سبب آخر مهم من الأسباب التي جعلت هذا الفصل يوفي علي الغاية في بابته !!

التدوين والمدونات في صدر الاسلام

وهذا فصل آخر على غاية من الخطورة والأهمية في موضوعه وهو أشد ما يكون التصاقا بالفصل السابق .. بل هو امتداده وقد استعرض فيه المؤلف الأسباب التي نشأ

عنها تأخر التدوين في التاريخ ونصوص النهي عن التدوين ونصوص الحث عليه وعدم تعارض هذه النصوص والاسباب الحقيقية لتأخر التأليف في العصر الاسلامي .

وهي عناوين لموضوعات خطيرة كان نصيبها من الكتاب عشر صفحات لاغير وهو نصيب ضئيل وقسمة ضيزى بالنسبة لضخامة الموضوعات وسعة القول فيها .

وأقول ذلك لا لأنني أؤيد التأليف بالكيلو .. ولكن لأن عشر صفحات لايمكن أن تستوعب شرح هذه الأغراض المتعددة مهما كان اعجاز الايجاز أو إيجاز الاعجاز !!

وهذا ما حصل بالفعل في هذا الفصل .. فان هناك تساؤلات ظلت دون جواب .. وقد ذهب الجواب عنها ضحية أو فدية لتحمس الاستاذ تحمسا شديدا لموضوع نفي تهمة كراهية التدوين واستغرق في ذلك كثيرا .

ولا يسعني مع الاسف مناقشته في هذا المجال .. فقد اطلت وربما تكون لي عودة الى ذلك فان لي بالموضوع نفسه بعض اهتمام متواضع !!

الرواية العربية وموقف التحقيق منها

وسأتجاوز فصل (مناهل رواد الثقافة) الى فصل اهم واخطر والحقيقة الماثلة في هذا الكتاب .. أن فصوله تزحم بعضها بعضا في الأهمية ومعظمها على غاية من ذلك .

وهذا الفصل مثلا ، (الرواية العربية وموقف التحقيق منها) يتطرق الى جوانب وزوايا غامضة مبهمة ظلت وستظل ميدانا رحبا للأخذ والرد والتحقيق والتمحيص بين المنطق والحق وبين الجدل المتعسف لأن الرواية العربية بالاضافة الى الظروف التي عاشتها في أحقاب مختلفة قد تعرضت للكثير من الدس والبهتان والكذب والاختلاق بدوافع كثيرة شعوبية ودينية وفتن قبائل وتنازع سلطة وعنعنات أحساب وأنساب .. مما جعل التحقيق في تراث الرواد العرب محفوفا بالمصاعب والاشواك .

وأهم ما أثاره المؤلف من كل ذلك هو موضوع الثقة التي تتمتع بها آراء المستشرقين وكذلك النصوص الأثرية ومقارنة ذلك بالثقة التي حازت عليها المدونات غير العربية في القديم .. لكأنه قد كتب على العرب أن يسترفدوا تاريخهم من الخارج قديما وحديثا ..

هل أقول ان تطرق المؤلف لمثل هذه الموضوعات الخطيرة إنما يدل أكثر ما يدل على وعيه الرائع وبصيرته الثاقبة بشئون تاريخنا وشجونه ؟؟

لو قلت ذلك لخشيت أن أكون حيث يقول الشاعر

الم تر ان السيف ينقص قدره   اذا قيل ان السيف امضى من العصى

مسالك رواد التاريخ ومناهجهم

وبعد فصل الرواية العربية .. عقد المؤلف فصله التاسع عن مسالك رواد التاريخ ومناهجهم لكنه لم يترجم لهم - الا اذا اعتبر تلك الاشارات والنبذ الموجزة في فصل أعلام المؤلفين في التاريخ العربي من قبيل التراجم فهي ليست كذلك !!

أقول لم يترجم لهم كما فعل في فصله عن الأوائل من رواد التفسير والمغازي والأنساب الذي ترجم فيه لعشرين رائدا منهم وان كنت اعتقد ان الاستاذ المؤلف نفسه يشاركني الرأي بان تلك التراجم مبتورة ناقصة موجزة بشكل لايفيد المحقق الباحث تلك الفائدة المطلوبة التي قد يتوخاها في كتاب عن التاريخ العربي ومصادره .

وذلك ربما يعود لعدم توفر الاخبار في المراجع القديمة عن هؤلاء مع ان بعضهم قد ألفت عنهم مؤلفات وربما يعود الأمر من جهة أخرى الى رغبة الاستاذ في الاقتصاد من صفحات الكتاب ادخارا لما هو أهم في رأيه ..

والحقيقة - مهما كان الامر - ان التراجم تحتاج من الاستاذ الي جزء أو أكثر من موسوعته .. خاصة - وهو يؤلف عن العرب في احقاب التاريخ والتراجم من ذلك في الصميم .. وخاصة ما يتعلق منها بمنهج بحثه .

أما التراجم التي أوردها في هذا الجزء من كتابه فهي غير وافية وليست في مكانها تماما ، وماقلناه عن تراجم الأوائل من رواد التفسير ينطبق ايضا علي تراجم الفصل الحادي عشر لنقاد الشعر الجاهلي ورواة أيام العرب فهو لم يترجم الا لخمسة من هؤلاء فهل نقاد الشعر الجاهلي ورواة العرب هم هؤلاء الخمسة فقط ؟!

أين تذهب اذن بالباقين الذين ملأت نقداتهم للشعر الجاهلي وروايته مئات الكتب ؟

اعلام المؤلفين في التاريخ العربي

أما الفصل الثاني عشر والأخير فان مباحثه أقرب جميع مباحث فصول الكتاب الى عنوان الكتاب نفسه وهو ايضا أعمق مايكون اتصالا بمنهج البحث والتلخيص التاريخي الحديث لأنه بالاضافة الي العرض والتلخيص .. قد أورد نبذا موجزة عن هؤلاء وذكر أسماء بعض كتبهم وان كان لم يشر الى طبعات هذه الكتب ولا إلى أرقام وجودها بالمكتبات الشهيرة ، كما ولم يشر أيضا الى المخطوط منها ولا الى ارقام وجودها ايضا ولم يشر الى المفقود منها او الموجود ..

ولاشك ان ذلك مما ينوء به كاهل المجهود الفردي وان كان من ضرورة البحث في الصميم ، ومع ذلك لو نظر القارىء الي كتاب (تاريخ الأدب العربي) لبروكلمان لوجده يفي بكل هذه الأغراض التي اشرت اليها آنفا بالنسبة لموضوع الكتاب ـ أي كتاب بروكلمان ـ ومنهج بحثه .

وأذكر أنني عندما قابلت الأستاذ المؤلف قبل أيام في مكتب الأستاذ عبدالمجيد شبكشي قلت له : ان موضوع كتابك هذا يتطلب منهج مباحثه ان تذيل كل فصل من فصوله بقائمة من مراجع موضوع الفصل سواء تلك التي رجعت اليها بالفعل أو غيرها لأنك إنما قصدت بتأليفك الحديث عن التاريخ العربي ومصادره .. أي أنني أردت منه أن يفعل مثلما فعل (بروكلمان) ومثل مافعلته الجامعة الأمريكية في بيروت عندما أصدرت كتابها (الأدب العربي في آثار الدارسين) .. وكما فعل ذلك من قبل بزمن طويل ابن النديم في الفهرست .

وأذكر أن الأستاذ المؤلف تنهد من أعماقه ، وقال : إن كتاب الجامعة الأمريكية مجهود جماعي .. ثم أضاف إشارة مؤسية إلى المبلغ المالي الذي أنفقه علي طبع كتابه فضلا عن انفاق وقته وجهده في تأليف الكتاب نفسه .. ولكنه لم يعلق علي الفهرست لابن النديم وهو مجهود فردي أي مجهود .. وفي وقت لم تكن فيه مطابع .. ولم تكن فيه دور نشر تطبع قوائم دورية بكتبها .. ولم تكن فيه جامعات .. ودور كتب تحتفظ بفهارس منظمة لمعظم مافي مكتبات العالم من كتب ومخطوطات .. وفي وقت لم يكن فيه البريد بالطائرة .. أو

الباخرة .. أو السيارة .. وفي وقت لم يكن فيه الابراق ممكنا .. والهاتف مستحيلا كما هو الشأن الآن في كل ذلك .

وعلي كل حال .. لايسعني حقا إلا أن أكرر القول .. وأزيده تكرارا أن أستاذنا الكريم قد بذل جهدا رائعا في كتابه هذا .. وهو جهد شديد الوضوح في أعطاف الكتاب وثناياه .. وخاصة إذا عرفنا أنه لاتوجد عندنا الى الآن دور كتب منظمة تنظيما كافيا .. تسهل للباحث الاطلاع على مايحتاج الاطلاع عليه من مصادر ومراجع .

ولست أشك أن معظم مراجع الأستاذ المؤلف هي مما تحتويه مكتبته الخاصة .. أو مما أعانه به بعض لأصدقاء .. أومما استطاع بجهد جهيد أن يحصل عليه في مكتبات المدينة المنورة أو غيرها .. وفي بعض ذلك مشقة أية مشقة .. فاذا اعتور كتابه بعض النقص ـ ولابد من ذلك ـ فهو على عذر حقا .. ولذلك أرجو أن يعذرني هو أيضا عن ذكر بعض الهنات الهينات مما ذكرت ومما لم أذكره خشية الاطالة .. وقد أطلت .. والله من وراء القصد .

البلاد ١٣٩١/١٢/٣٠هـ

في شمال غرب الجزيرة

صدر هذا الكتاب عام ١٣٩٠هـ أي منذ حوالى سنتين ، وكنت قد قرأته في حينه ، ولكن عندما بدأت في الآونة الأخيرة بتحرير صفحة (كتب وكتاب) الاسبوعية في هذه الجريدة اضطررت لاعادة قراءته من جديد ، من أجل عرضه وتقديمه ، فلا شك ان من حق شيخنا حمد الجاسر مؤلف الكتاب ، أن تكون آثاره وكتبه موضع عناية واهتمام .. فهي في هذا الموضع من قبل علماء أجلاء ومجامع علمية كبيرة فكيف بمثلي من تلامذته ؟

ولست أزعم أنني قد استمتعت بقراءة الكتاب في المرة الأولى أو الثانية ، والعياذ بالله !! فهو طراز من الكتب التي لاتقرأها الا وأنت معصوب الرأس ، وأقراص « الأسبرو » بجانبك .. ذلك لأنها شد ماتقرع أدمغة القراء بمعلومات ، وتواريخ ، و(بهاذل) لايمكن أن تكون من المتعة التي يطلبها قراء « المؤانسة والامتاع » في شيء ، وان كان قد تخلل الكتاب بعض النوادر والطرائف التي تضحك الثكلى من نوع (الحليب !! عاينوا البل ص ١٠٠) ومن نوع نزول شيخنا الجاسر إلي حقل ماء في خيبر ليغتسل ، ثم ليغسل ثيابه الداخلية (!!) بين ضحك وهزء رفيقه في الرحلة ص ٣١٩ ـ إلى آخر ماهنالك من هذه الطرائف ، والنكت ، المحبوبة جدا في أدب الرحلات ، وغير أدب الرحلات ، ولكن شيخنا الجاسر ـ سامحه الله ـ قلل منها ، مع قدرته الفائقة علي الكثير منها !!

يقع الكتاب في ٦٧٥ صفحة من القطع المتوسط ، طبع مطابع المثنى في بيروت ، الطبعة الأولى عام ١٣٩٠هـ علي ورق جيد ، وطباعة حسنة ، وتجليد ممتاز ، وهو ـ أي الكتاب ـ من قبيل كتب الرحلات القديمة المهتمة بالوصف والتحديد الجغرافيين ، بل هو كتاب رحلة بالفعل حيث قام مؤلفه بثلاث رحلات لشمال غربي الجزيرة ، وللأماكن أو

معظم الأماكن التي ذكرها في كتابه ، ولكنه يختلف عن كتب الرحلات ، وعن الكتب الجغرافية القديمة من عدة أوجه :

١ ـ اسلوبه العصري .

٢ ـ طريقة العرض الحديثة المنظمة .

٣ ـ دراسات لبعض الموضوعات المتعلقة بالمنطقة موضوع الكتاب ، ليس جغرافيا فقط ، بل تاريخيا واجتماعيا وعلميا ، وزراعيا الخ . بل ودينيا ايضا مثل بحث : « اليهودية في تيماء » وغير ذلك مما لانجده في كتب الرحلات او الكتب الجغرافية القديمة أو مما لم أجد أنا مثله في قراءاتي المتواضعة !

٤ ـ الفهارس الدقيقة المنظمة التي اشتمل عليها الكتاب .

٥ ـ المصورات الجغرافية ـ الخرائط وقد بلغت تسع خرائط .

٦ ـ الصور الفوتوغرافية لكثير من المواضع ، والآثار والأمكنة التي ذكرها الكتاب وقد بلغت ٥٣ صورة .

وقد قسم المؤلف كتابه إلى ستة أقسام على النحو التالي :

١ ـ وادي السرحان « قريات الملح » .

٢ ـ الجوف « دومة الجندل » .

٣ ـ الشعيبة والجار ـ ميناء الحجاز .

٤ ـ في بلاد خيبر .

٥ ـ تيماء وآثارها .

٦ ـ بين تبوك وعمان .

وذلك بالاضافة الي « معجم المواضع » الذي احتل ١٤٦ صفحة ، وهو وصف موجز لأهم المواضع من قرى ومدن ومناهل وأودية وجبال وآبار وعيون ، في بلاد تبوك وتيماء والجوف وخيبر والقريات « وادي السرحان » وما حول تلك البلاد .

واعتقد انه لولا منهج بحث الكتاب لما أورد شيخنا الجاسر هذا المعجم في الكتاب ، ذلك لأنه قد بدأ فعلا بأضخم عمل من هذا القبيل ، وهو المعجم الجغرافي الحديث للبلاد العربية السعودية ، وقد صدر منه بالفعل الجزء الأول عن منطقة جيزان ، والجزء الثاني عن

منطقة غامد وزهران ، وهناك عدة أجزاء في طريقها الى الصدور تباعا ، ومنها : « شمال الحجاز» و« شمال المملكة » والمنطقة الشرقية وغير ذلك من أجزاء وأنحاء المملكة المترامية الأطراف ، وهو عمل جليل سيبقي أثره طويلا علي مدى التاريخ ، فما كان ليحتاج الى هذا المعجم في الكتاب لولا مقتضيات منهج بحث الكتاب ، إذ ليس كل قارىء يملك أجزاء المعجم الجغرافي التي صدرت أو التي ستصدر .

وقد وضع المؤلف مقدمة مركزة بين يدي كتابه تناول فيها أسبابا كثيرة مما لا تزال معها بلادنا بحاجة لدراسة متعددة النواحي ، وانها لا تزال بكرا في هذا المجال ، وان تحديد كثير من الأمكنة لا يزال مكتنفا بالحيرة والغموض ، وانه (لا يمكن التخلص من هذه الحيرة إلا بزيارة المواضع ومشاهدتها عن كثب ، وتحديدها بعد تلك المشاهدة ، وهما أمران لم يتسن للمتقدمين القيام بهما الخ) ، وذلك ـ كما هو واضح ـ هدف هذا الكتاب ، وهدف غيره من الكتب التي أصدرها علامتنا الجليل .. ذلك لأن الجزيرة العربية هي : (مهد العرب ، ومنها نبغ الشعراء الذين كان شعرهم المعين الأول لتدوين اللغة العربية ، وفي فيافيها وقفارها جرى للعرب جولات وتنقلات وحروب ، سجلها الشعر العربي مرتبطة بأماكن حوادثها) .

أما محتويات الكتاب ، ومنهج بحثه فكما يلي :

١ ـ تسجيل مشاهدات المؤلف عن الأمكنة التي مر بها .

٢ ـ ايراد أقوال المتقدمين بوصف المواضع وتحديدها .

٣ـ ذكر المواضع المذكورة في الشعر العربي ، والمجهولة في الكتب المختصة ، مما قرب من الأمكنة التي زارها المؤلف .

٤ ـ ذكر بعض المواضع المجهولة بجوار المواضع المعروفة .

٥ ـ ذكر الاسم الحديث للموضع بجانب الاسم القديم له .

٦ ـ إصلاح بعض الأخطاء في المعلومات الجغرافية في خرائط طبعت من قبل وزارة البترول والثروة المعدنية .

ويقول المؤلف :

(وبالاجمال فقد حاولت أن أقدم للقارىء خلاصة وافية مما بين يدي من المؤلفات

القديمة أو الحديثة ، وهي مؤلفـات على درجـة من الكثـرة قد لا يتسنـى لكل قارىء جمعها) ، وذلك طبعا بالاضافة الى مشاهداته شخصيا .

هذه هي خلاصة محتويات الكتاب ، ومنهج البحث فيه .

أما النقد فلست أرشح نفسي لنقد ما ورد في الكتاب من تحديد للأمكنة أو مصورات جغرافية ، أو غير ذلك من هذا القبيل ، لأنني لست معنيا بهذا الشأن الى الدرجة التي يمكن أن أتصدى معها للنقد فيه ، ولأن الشيخ حمد الجاسر هو علامة الجزيرة ، وحجتها في هذا الشأن ، ليس عند القراء من أمثالي فحسب ، بل عند العلماء ، والمجامع العلمية كما أسلفت .

ولقد كنت اعتقد اثناء قراءتي للكتاب ان استاذنا الكبير قد أقحم بعض الموضوعات في كتابه مثل « اسطورة اليهود في تيماء « و « من أعمال عبدالعزيز السديري » و « التعليم في القريات » الي غير ذلك من الموضوعات المشابهة .. إلا انني عدلت عن اعتقادي هذا لأن المؤلف ينص في عنـوان كتابـه علي انـه أي الكتـاب ، نصـوص ، مشاهـدات ، انطباعات ، واذن فكل ما أورده مما كنت اعتقد انه من قبيل الاقحام ، هو في الواقع من صميم المشاهدات والانطباعات واذن لا ضير ولا تثريب ، فحتى هذه لم يتركهـا لنـا شيخنا الجاسر لنتعلق بها تعلق الشادي بالحادي !!

ولكن ـ مع ذلك ـ أهم ما استوقفني طويلا في الكتاب هو موضوع « اليهوديـة في تيماء » ، وهو موضوع على درجة من الأهمية في البحث التاريخي ، ولكن شيخنا الجاسر لم يعرض له إلا لالتصاقه بسمت الكتاب. ولذلك اجمل فيه ما يحتاج الى تفصيـل ، ولا شك ان هذا التفصيل لا يلزم منهج الكتاب نفسه ، ولكنه قد اثار في ذهني ـ علي كل حال ـ عدة اسئلة حول موضوعي « اسطورة اليهود في تيماء » و « حول السموأل » .

خلاصة رأي الشيخ الجاسر عن « اليهودية في تيماء » انها مجرد ديانة فقط ، وان أهلها لم يكونوا يهوداً بالنسب .. بل كانوا في ذلك العهد ـ أي قبل الاسلام ـ عربا قحطانيين من غسان .. لماذا لا أورد النص نفسه ؟ هاهو اذن : « ولا شك ان الديانـة اليهوديـة قد انتشرت في تيماء ، ولكن سكانها لم يكونوا يهوداً ، بل كانوا في ذلك العهد عربا قحطانيين من غسان » .

لماذا ، وكيف ؟ . لأنهم كما يري شيخنا : « ما كان اليهود يستطيعون في ذلك العهد ان يتوغلوا الي تيماء الواقعة في مكان متوغل بين منازل القحطانيين في الغـرب والشمال والشرق ، ومنازل العدنانيين في الجنوب ، والجنوب الغربى » .

ويرى الشيخ الجاسر « ان اليهودية لصقت بتيماء حينما عرف من أهلهـا السمـوأل بن عاديا ، وهو عربي قحطاني غساني ، ومن ثم عرفت بتيماء اليهودية للتفريق بينها وبين مواضع أخري تسمى بهذا الاسم » .

وقبل هذه الآراء التي أوردها الشيخ الجاسر كان قد أورد قولـه : « وتبـرز قصـة السموأل بن عاديا الذي يكاد يتفق المؤرخون علي انه يهودي ، ومن ثم يعرف أهل تيماء عند ظهور الاسلام بأنهم يهود صالحوا الرسول ﷺ سنة تسع من الهجرة » .

ثم يتساءل بعد ذلك مباشرة : « فهل كان سكانها الأقدمون ـ يقصـد تيماء ـ من اليهود ؟ أم ان ديانتهم هي اليهودية ، وانهم من العرب الصريحي النسب ؟ » .

ثم يذهب ـ أي الشيخ الجاسر ـ الي ما ملخصه ان جزيرة العرب قد عرفت ديانات مختلفة قبل الاسلام ، ومنها اليهودية في جنوب الجزيرة وشمالها الى ان يقول : « ومسألة انتشار الأديان بين العرب أمر مفروغ منه ، وانتقال جالية من اليهود الى شمال الحجاز شيء معروف أيضا ، ولكن تلك الجالية كانت تقيم في كنف القبائل العربية ولم يكن لها حول أو طول ، بل كانت علي درجة من الذلة والاستكانة .. » ثم يورد دليلا علي ذلك أبياتا لجماعة البارقي .

بعد كل هذه النصوص التي أوردتها من آراء شيخنا الجاسر عن اليهودية في تيماء نجد أنفسنا تجاه مفترق طريق اليهودية في تيماء :

هل هي النسب ؟

أم هي الديانة ؟

وبما انني شخصيا فارغ الذهن حيال هذا الموضوع ـ اذا شئت ان اتواضع ـ أو شبه ذلك ـ اذا شئت أن أتعالم ـ فانني أود أن أطرح التساؤلات التالية علي شيخنا وعلامتنا : ـ

١ ـ كيف عرفت الجزيرة العربية جنوبها « اين بالتحديد » ، وشمالها « اين بالتحديد

ايضا » الديانة اليهودية ؟ فما أحرى الشبيبة المتطلعة ان تعرف مثل ذلك بالأسلوب العصري الذي تفهمه ، بدلا من ان يقال ان ذلك شيء مفروغ منه أو معروف !!

هل يريد شيخنا الجاسر وأمثاله من مثلي وأمثالي ان نرجع الى امهات ومتاهات كتب التاريخ لنعرف مثله ان ذلك شيء مفروغ منه أو معروف ؟ بينما كان بامكانه ان يقول لنا ذلك في صفحة أو صفحات من كتابه هذا ما دام قد تطرق للموضوع ، وما دام قد قضى عمره - أمد الله في عمره - في هذا السبيل وأمثاله .. أفيكفينا منه أن يقول لنا : ان ذلك شيء معروف ، معروف لمن ؟ !

وما دام لابد بالضرورة من دعاة ومبشرين لأية ديانة ، فمن هم هؤلاء الدعاة أو المبشرون الذين نشروا اليهودية في جنوب الجزيرة وشمالها ، وتوغلوا بهذه الديانة كل هذا التوغل بين القحطانيين والعدنانيين على ما كانت عليه الجالية اليهودية من ذلة ومسكنة ؟

وما دام ان « انتقال جالية من اليهود الى شمال الحجاز شيء معروف أيضا » لماذا لا يحتمل ان يكون يهود تيماء من هذه الجالية ؟ وهي - أي تيماء - ان لم تكن في الصميم الجغرافي من شمال الحجاز فعلى وشك !

ثم كون الجالية اليهودية « كانت تقيم في كنف القبائل العربية ، ولم يكن لها حول ولا طول » .. هل يمنع ذلك ان يبرز منها مثل السموأل ، خاصة ونحن نعرف ان بعض القبائل العربية نفسها - فكيف بجالية يهودية مستضعفة - كانت تلوذ - أي القبائل أو الفخوذ العربية - حين تهزم أو تستضعف ، تلوذ بذلة ومسكنة ايضا الى قبائل اخرى أشد منعة ، وقد تندمج فيها أحيانا .. أليس كذلك ، وهل احتاج الى اثبات مراجع ؟!

وكون اليهود ، ما كان في استطاعتهم - كما يري الشيخ الجاسر - « ان يتوغلوا الى تيماء الواقعة في مكان متوغل بين منازل القحطانيين في الغرب والشمال والشرق ، ومنازل العدنانيين في الجنوب ، والجنوب الغربي » .

كيف اذن استطاعت الديانة اليهودية وحدها ان تتوغل الى هذا المكان الموغل « تيماء » ؟ . ونحن نعلم انه لم تكن حينذاك وسائل نشر أو اذاعة أو (تلفزيون) بل ولا سبل مواصلات ميسورة .. فكيف اذن تتوغل الديانة وحدها كل هذا التوغل ؟ ثم تأخذ كل هذه الشهرة في تيماء خاصة ، وفي غير تيماء ؟

إذا أعدنا شهرة انتشار اليهودية في تيماء الي شهرة السموأل كما يرى الشيخ الجاسر .. ألا يفرض علينا ذلك التساؤل عن أسباب شهرة السموأل نفسه ؟ .

ولا شك ان أسباب شهرة السموأل معروفة في كتب التاريخ والأدب العربي ، وكان بودي ان اعرض لها بالتفصيل إلا انني قد أطلت ، والحيز في هذه الجريدة محدود ، ولكن ذلك لا يمنع ان اشير الي ان أسباب شهرة السموأل هي قصة الوفاء المزعوم الذي اشتهر به مع أدرع امرىء القيس فقيل في الأمثال « أوفى من السموأل » ، ولكن هذه القصة نفسها ، وهي أهم أسباب شهرة السموأل ، خاضعة للبحث والتمحيص ، مع انها منتشرة بشكل كثَيف في كتب الأدب والتاريخ العربي ، ومع انه قد ذهب بها اليهود كل مذهب ! ولكن ما أكثر ما يحتاج الي البحث والتمحيص مما ورد في هذه الكتب !!

ورواية هذه القصة بل رواية قصيدة امرىء القيس التي هي سبب شهرة السموأل قد انفرد بها ، كما هو معروف دارم بن عقال ، وهو من ولد السموأل ، وهو شاعر ايضا .. أفلا ينبغي ان نحذر منه بعض الحذر عند التحقيق والبحث في هذا الموضوع ؟

أما نسب السموأل نفسه ففيه ـ كما يعلم شيخنا الجاسر ـ اختلاف كبير في كتب الأنساب والتاريخ ، اختلاف لم يحصل مثله ـ علي حد علمي ـ في نسب أي مشهور من مشاهير العرب ، فما هو السر في ذلك ؟!

أليس هو ـ يا ترى ـ اضطراب الروايات ، بسبب سوء القصد منها ؟!

إنني بعد ان وضعت كل علامات الاستفهام هذه ، واشرت الي مواطن شكوك معينة لا تخفى علي شيخنا الجاسر ، لأنتظر منه ان يوافي قراء هذه الصفحة ببحث مفصل عن اليهودية في تيماء ، وقصة وفاء السموأل ، وله الشكر الجزيل سلفا .

١ ـ (جريدة البلاد ٢٩ / ١ / ١٣٩٢)

٢ ـ نقلته مجلة العرب ع ٩ س ٦ .

تاريخ المخلاف السليماني

لاشك أن تاريخ منطقة تهامة أو (المخلاف السليماني) او (الجنوب العربي) بصفة عامة لم يلق العناية الكافية من المؤرخين ، وخاصة في بعض عصوره التي تكاد تكون مطموسة تاريخيا .. أو هو ـ أي هذا الجزء العزيز من وطننا الغالي ـ قد لقي بالفعل تلك العناية الواجبة من المؤرخين .. ولكن لم يشأ الحظ العاثر ان تبرز مؤلفاتهم الى النور فبقيت على شكل مخطوطات منها ماهو في الحفظ والصون لدى بعض الاشخاص أو الهيئات ممن يعرفون قيمتها فيحافظون عليها ، ومنها ـ أي تلك المخطوطات ـ ماكان حقلاً مفتوحا للسلب والنهب وتخاطف الأيدي من الشرق والغرب .. وهواة المخطوطات .. ومنها ما لعله قد تعرض للضياع والشتات والتمزق .

ولكن رغم كل ذلك .. هناك الكثير جداً من المخطوطات التي لاتزال محفوظة بالفعل .. ولكن ضن اهلها بها من جهة ، وعدم عناية الباحثين والمؤرخين العرب بالبحث عنها من جهة اخرى ، جعلها رهينة الأرفف والصناديق فضاعت بذلك أو كادت ثروة هائلة من المراجع المخطوطة عن تاريخ هذه المنطقة في مختلف العصور .

ومن هنا لايكاد الباحث الآن يجد مايمكن أن يفيده مما هو متداول أو مطبوع عن تاريخ هذه المنطقة .. اللهم الا بعض النتف من الاخبار المبثوتة في خضم المراجع القديمة المطبوعة والمتداولة .. وهي نتف من الأخبار تحتاج في جمعها وترتيبها الى مجهود شاق .. ثم لايطلع الباحث منها بتاريخ مترابط الصلة متسلسل الحلقات .

وهكذا ظل تاريخ هذه المنطقة وتاريخ الكثير مما جاورها من المناطق حلقة شبه مفقودة في التاريخ العربي العام .. وأقول شبه مفقودة .. وأنا أقصد ذلك بالنسبة للكتب أو المراجع المطبوعة والمتداولة ولكنها ليست مفقودة بالنسبة لآلاف المخطوطات التي مازالت محفوظة عند رجالات القبائل وعلمائها .. ودعك من تلك المخطوطات المفقودة .. أو تلك التي تناهبتها أيدي سبأ !!

ولم تجد هذه المخطوطات من العناية بها ، ماوجدته غيرها في البلدان العربية الأخرى حيث تم تحقيق وطبع ونشر الكثير منها .

أما في هذا الجزء من وطننا العربي ، فمخطوطاته حبيسة الأدراج .. قد هانت على أهلها .. أو لم يستطع أهلها الافادة منها لسبب او لآخر ليس هنا مجال تفصيله !!

وكان الاستاذ محمد بن احمد عيسي العقيلي من اوائل المعاصرين الذين اهتموا بالاستفادة من هذه المخطوطات فجمع منها ما استطاع جمعه مما يختص بتاريخ المنطقة .. فذلك حيث يقول في مقدمة الطبعة الاولى لكتابه الذين نحن بصدده :

« توفرت لدي مخطوطات تاريخية نادرة الوجود .. فاقتنصت فرصا من أوقاتي شغلتها بما أرجو أن يكون ذا فائدة في تأليف هذا التاريخ ص ٣٩ »

وحسنا فعل الأستاذ العقيلي ، وكان في ذلك رائدا بحق وحقيق ... ولكن ماكان أحراه وهو على هذا القدر من الغيرة على تاريخ وطنه ... وعلى هذا القدر من الوعي لقيمة هذه المخطوطات .. بل ندرة وجودها ـ على حد تعبيره ـ ماكان أحراه أن يعمل على ابراز هذه المخطوطات الى النور بتحقيقها وطبعها ونشرها ، وهو القادر على ذلك ـ بفضل الله ـ ماديا وأدبيا .

وكان ومازال يمكنه ـ لو لم يكن قادراً على ذلك لأي سبب من الاسباب ـ ان يقدم هذه المخطوطات لاحدى جامعاتنا أو مراكزنا العلمية ، لتقوم بتحقيقها ونشرها أو الاحتفاظ بها في صون وأمان حتي يتاح تحقيقها ونشرها .. ذلك لأن الاحتفاظ بمثل هذه المخطوطات في مكتبة جامعية مثلا يختلف عن الاحتفاظ بها لدى فرد من الافراد .. حيث يتيح وجودها في مكتبة الجامعة فرصة طيبة لكل باحث للاستفادة منها .

وذلك ـ كله او بعضه ـ هو الذي يخدم تاريخ المنطقة حقا وصدقا .. وهو الهدف الذي توخاه الاستاذ العقيلي .

اما احتفاظه بها ، واحتكاره لمعلوماتها .. وعدم اتاحة الاستفادة منها للباحثين فلم يزد العقيلي بذلك عن كونه مثل احد شيوخ قبائل اليمن الذين يحتفظون بأكداس من هذه المخطوطات ... ثم لايتيحون ابدا فرصة الاطلاع عليها .. وكأنها من أنواع الطلاسم التي تفقد قيمتها بمجرد فتحها !!

إن وجود مثل هذه المخطوطات النادرة الوجود عند الاستاذ العقيلي ، امانة في عنقه . ولاشك انه يقدر مدى ثقل هذه الامانة !! وخاصة ان هذه المخطوطات تشكل قوام تاريخ منطقة بأكملها ، عزيزة غالية !!

الطبعة الأولى من الكتاب

كانت قد صدرت الطبعة الأولى من كتاب الأستاذ العقيلي عن مطابع الرياض عام ١٣٧٨هـ وكانت الطبعة الأولى بعنوان « المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ » ... وكانت تسمية فضفاضة جدا حيث قوبلت بالكثير من النقد .. بدأه الشيخ حمد الجاسر في مقدمته لتلك الطبعة نفسها حيث قال :

(وما كنا نريد للأستاذ ـ يقصد العقيلي ـ التوسع في الموضوع توسعا يجعل من الصعب على الباحث ان يعتبر هذا الكتاب شاملا لتاريخ « الجنوب العربي » الذي يقصد به جنوب جزيرة العرب بأسره ، بينما لايجد الباحث فيه شيئا من تاريخ جل هذا القسم من بلادنا كعدن وحضرموت وعمان) مقدمة الطبعة الاولى ص (ي ـ ك)

فكان أن عدل الاستاذ العقيلي ـ تجاه نقد الناقدين ـ عن هذه التسمية الفضفاضة .. واختار للطبعة الثانية التي بين ايدينا الآن منها الجزء الاول عنوان (تاريخ المخلاف السليماني) ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه .. ولكن ؟

ولكن حتى هذه التسمية الاخيرة فيها نظر أيضا .. فالحقيقة ان الكتاب لايعتبر تاريخا للمخلاف السليماني فقط .. بل هو في الكثير جدا من صفحاته عبارة عن سرد تاريخي لاخبار دول وحكومات يمنية في عصور مختلفة يذكر من أخبارها حتى كيفية « طبخ الحلوى » !!

ويبرر الاستاذ العقيلي ذلك في مقدمة كتابه بقوله : « كنت قصدت بتأليفي هذا ان أدون ماوصل اليه علمي من تاريخ المخلاف السليماني ، ولكنني اضطررت لارتباط كثير من اخبار دول وحكومات نشأت في البلاد المجاورة له الى الاستطراد بسرد أخبار تلك الدول والحكومات الخ » ص ٤٠ المقدمة

والواقع ان المسألة لم تكن مسألة استطراد فحسب .. ذلك لأن العقيلي قد افرد فصولا كثيرة بأكملها لأخبار الدول والحكومات المجاورة على مر العصور دون ان يشير الى العلاقة بين هذه الأخبار .. أو بين تلك الدول والحكومات وبين تاريخ المخلاف السليماني وإلا فما هي العلاقة مثلا بين مملكة « قتبان » أو دولة « سبأ » أو غيرهما وبين المخلاف السليماني

بل ماهي العلاقة بين التوسع في الحديث عن المذهب الزيدي ودعاته وأئمته وبين المخلاف السليماني ؟!

أو ماهي العلاقة بين طريقة « طبخ الحلوى » في بلاط دولة يمنية بتاريخ المخلاف السليماني ؟!

ربما تكون هناك بعض العلاقة الطفيفة جدا ، وغير المهمة تاريخيا بين ذلك السرد المطول لأخبار الدول والحكومات المجاورة وبين تاريخ المخلاف السليماني .. ولكن الأستاذ العقيلي لا يشير بعد سرد اخبار كل دولة أو حكومة الى مدى علاقتها بتاريخ المخلاف السليماني .. وكان اول من انتقده في ذلك الشيخ حمد الجاسر في مقدمته للكتاب نفسه حيث يقول :

(كنا نريد أن يكون القسمان الأولان في الجزء الأول من الكتاب أوفى وأكمل مما هما عليه ، وأن يوجز تاريخ الحكومات التي حكمت اليمن ـ فالمؤلفات التي عنيت بتدوين تاريخ هذا القطر العزيز من بلادنا كثيرة متداولة ـ بخلاف كل مايتعلق بتاريخ المخلاف السليماني الذي ألف من أجله هذا الكتاب) مقدمة الطبعة الاولى ص (ي)

وهكذا فان معظم الفصول كانت ـ في الحقيقة ـ مجرد سرد او حشو لا لزوم له !!

وكان العقيلي قد برر ذلك بالتسمية القديمة للكتاب (المخلاف السليماني او الجنوب العربي في التاريخ) ومعنى ذلك ان الكتاب لابد ان يشمل اخبار دول وحكومات اليمن .

أما الآن وفي الطبعة الثانية للكتاب ، وقد اسقط الاستاذ العقيلي تسمية « الجنوب العربى في التاريخ » لعدم دقتها أو ضرورتها .. فما هي ياتري ضرورة استمرار الاستاذ العقيلي في سرد اخبار تلك الدول والحكومات المجاورة .. وماهو مبرره في ذلك مادام قد أسقط التسمية في الطبعة الثانية .. ومادام لايشير الى العلاقة بين تاريخ المخلاف السليماني وبين اخبار تلك الدول والحكومات ؟

كان المفروض ان يحذف الأستاذ العقيلي من الطبعة الثانية جميع اخبار تلك الدول والحكومات المجاورة .. أو يقتصر على ماهو متعلق منها بموضوع أو تسمية الكتاب في طبعته الثانية .. ولكنه بدلا من ذلك ظل على توسعه في سرد اخبار كثيرة جدا لا علاقة لها بموضوعه .. أو هو لايشير الى تلك العلاقة ـ ان كانت موجودة ـ على أقل تقدير !!

رغم انه يذكر مثل ذلك في احيان قليلة جدا .. ويغفله في مطلق الأحيان !! ثم ان التسمية الجديدة « تاريخ المخلاف السليماني » كان ينبغي ان يضاف اليها مثلا « أو مقاطعة جازان » .. ذلك لأن تسمية « المخلاف السليماني » تسمية قديمة لم تعد معروفة الا لدى خاصة الخاصة على انها تعني مقاطعة جازان حاليا .. فكان احرى وأدق أن تذكر التسمية القديمة وتذكر معها التسمية الحديثة .

والدليل على اهمية ذلك أن للأستاذ العقيلي نفسه كتاب آخر بعنوان « مقاطعة جازان في العهد السعودي » ولم يقل « تاريخ المخلاف السليماني في العهد السعودى» !! وله كتاب آخر بعنوان (الآثار التاريخية فى منطقة جازان) !!

منهج التأليف

ذكرنا ان هذا الكتاب قد صدر في طبعة اولى ـ من جزأين ـ عن مطابع الرياض عام ١٣٧٨هـ .. وها هو يصدر الجزء الاول منه في طبعته الثانية من ضمن منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر .. ولم يذكر تاريخ هذه الطبعة الثانية .. ولكن المقدمة مؤرخة عام « ١٤٠٢هـ »

اما منهج التأليف في الطبعتين فان الاستاذ المؤلف لايذكر شيئا مهما عن منهجه غير قوله في المقدمة :

(وأن يكتب التاريخ لا بلهجة علمية جافة ، تجعله بعيد الاستساغة .. بل يمزجه بقطرات من حلاوة الأدب ، ورونق الخيال « هكذا » في حدود تقرب جدا من الانصاف)

ثم يقول في المقدمة أيضا (وليكن موائما بين منهج التاريخ الواقعي ، ومهيع الطريقة الادبية) !!

ولكن المؤلف لاينير بصيرتنا عن « منهج التاريخ الواقعي » في نظره .. ومن ثم لايدلنا على شيء من منهجه في تأليف الكتاب .

وفي هذا المجال بالذات لابد لنا من ايضاح عدة امور فيما يلي :

أولا : ان الأستاذ العقيلي قد اعلن اكثر من مرة رأيه في كيفية تحقيق ودراسة التراث والاستفادة منه ، وهو رأي يخالف على طول الخط المنهج العلمي الصحيح .. وقد انتقده في هذا الرأي غير واحد .. وفي مقدمتهم الشيخ حمد الجاسر ، وهو لاشك حجة في هذا المجال .

وأذكر أنني شخصيا كتبت موضوعا مطولا حول رأي العقيلي في كيفية تحقيق ودراسة التراث .. وكان ذلك الموضوع بعنوان : (العقيلي .. ومفاهيمه التراثية ؟!) .. وقد نشر بجريدة البلاد بتاريخ ١٣٩٣/٥/٥هـ .. وقد فندت آراء العقيلي التراثية بتفصيل واضح وكاف .

وأذكر أيضا ان الصديق الأستاذ علوي طه الصافي كان قد اجري مقابلة صحفية مع العقيلي حول مفاهيمه التراثية ، نشرت بمجلة اليمامة بالعدد ٢٥٣ بتاريخ ١٣٩٣/٤/١٥هـ

وكان من ضمن تلك المقابلة هذا السؤال بالنص :

(انتقد الشيخ حمد الجاسر طريقتك او منهجك في تحقيق ودراسة التراث لقيامك بحذف أشياء منه لأنها لاتتناسب ومجتمعنا الحاضر ، وجيلنا المعاصر ، ورأيه ان التراث يجب ان يبقى كما هو لأن عملية الحذف والاختيار تجعله مبتورا وناقصا ولايعطي الصورة الصحيحة للبيئة والمجتمع .. فما هو رأيك ؟)

وكان جواب العقيلي كما يلي بالنص

(التراث ينبغي ان يقدم بطريقة الالتزام بما يناسب روح الدين والاخلاق الفاضلة .. ومايتفق مع مباديء نهضتنا الاصلاحية الدينية .. وأن نقدمه للأجيال مصفى (...) وماكان يستساغ سابقا في عصر لايستساغ في عصر آخر فنحن امام طريقين .

الاول : ان نقدمه كما هو .. وهذا ماتقتضيه الامانة العلمية مع مافي ذلك من عصبيات وعنصرية وتفاوت طبقي (..) وخنوع

الثاني : أن نأتي بالتراث ونختار منه مايتفق وروح الدين وعنصر الاخلاق الفاضلة .. ومايوائم روح العصر الخ)

ولقد ذكرت هذا النص بطوله لأنه يمثل في الحقيقة خلاصة رأي العقيلي في كيفية تحقيق
التراث ودراسته والاستفادة منه .. وأنه يجب ان يقدم مصفى حتى ولو خالف ماتقتضيه
الامانة العلمية التي اشار اليها الاستاذ العقيلي .

ومن هنا يمكننا ان ندرك كيفية ومدى استفادته من المخطوطات النادرة الوجود والمتوفرة
لديه في تأليف كتابه هذا أو غيره من كتبه .. وهي كيفية او طريقة في منهج البحث
لاتطمئن القارىء العادي فضلا عن الباحثين المختصين .

وتلك مجرد فكرة عن منهج الاستاذ العقيلي في الاستفادة من التراث في المخطوطات أ
المطبوعات .. والتي لاشك انه قد اتبعها في تأليف كتابه .

ثانيا : أما منهجه في تأليف الكتاب من حيث الترتيب والتبويب فهو لايتبع في الحقيقة
اي منهج معروف من المناهج القديمة او الحديثة .. ولذلك لم يستطع هو نفسه ان يوضح لنا
في مقدمة الكتاب القاعدة التي سار عليها في التأليف .

وقد أشرنا في صدر هذا المقال الى مدى الخلط الذي أحدثه الأستاذ العقيلي بين تاريخ
المخلاف السليماني وبين اخبار دول وحكومات البلاد المجاورة دون الاشارة ـ اشارة
كافية ـ الى مدى العلاقة بين هذا وذاك .

ويكفينا هنا ان ننقل رأي الشيخ حمد الجاسر للكتاب نفسه حول هذا الموضوع :

(على أننا لانعفي الاستاذ المؤلف من تبعة النقص في مواضع كان في امكانه تداركه
فيها ، من حيث الترتيب والتبويب ، والايجاز في مواضع تستدعي الاسهاب ، والاسهاب في
مواضع لاتستحق ذلك)

وهذا الرأي الموجز جدا يعطينا ـ رغم ايجازه ـ فكرة واضحة عن طريقة المؤلف في
الترتيب والتبويب وتناول الموضوعات .

ولاشك ان الاسهاب في المواضع التي تستدعي الايجاز أو العكس .. انما دعا اليه
مفهوم العقيلي نفسه حول تقديم التراث « مصفى » فيحذف الكثير متى شاء فيكون
الايجاز ، ويبقي على الكثير متي شاء فيكون الاسهاب بصرف النظر عن المنهج العلمي ا
الامانة العلمية !!

مصادر ومراجع الكتاب

وهذه ناحية على جانب كبير جدا من الاهمية ، وخاصة في مجال التاريخ ، وخاصة يضا في مجال تاريخ منطقة لايكاد يعرف عنه مايكفي وفي هذا المجال بالذات ، مجال صادر ومراجع العقيلي في كتابه لابد لنا من ذكر بعض الملاحظات فيما يلي :

اولا : بعد صدور الطبعة الاولي من الكتاب ، كثر اللغط والهمس والجهر على مستوى لنشر في الصحف والمجلات ، وعلى مستوى مجالس الادباء ، وخاصة في منطقة جازان حول كون الاستاذ العقيلي قد سطا سطوا فادحا على مخطوط ضخم عن تاريخ المنطقة ـ وضوع الكتاب ـ للشيخ المرحوم عبد الله العمودي الذي عاصر حكم الادارسة والاشراف والعهد السعودي الاول في المنطقة ، وكذلك صدراً من العهد السعودي لحديث .

وقيل ان الشيخ عبد الله العمودي كان قد أعار الاستاذ العقيلي كتابه المخطوط الذي سجل فيه الاحداث التي عايشها بنفسه عن كثب وان الاستاذ العقيلي قد سطا على ذلك لمؤلف المخطوط ونقل معظم ماجاء فيه عن احداث المنطقة ونسبها لنفسه ولم يشر الى لشيخ العمودي من قريب او بعيد .

ولكن الاستاذ العقيلى نفى ذلك نفيا قاطعا .. وان كان قد اعترف بأنه استعار الكتاب علا واطلع عليه .

وبالرغم من نفي العقيلي لما كثر من لغط وقيل وقال حول هذا الموضوع الا انني اجد من الضرورة الاشارة الى ذلك مادمت بصدد الحديث عن مراجع ومصادر العقيلي .

ثانيا : يصرح الاستاذ العقيلي ـ كما سبق ان اشرنا ـ بأنه توجد لديه مجموعة نادرة لوجود من المخطوطات عن تاريخ المنطقة .. وانه قد استفاد منها في تأليف هذا الكتاب .. لكنه ـ مع كل اسف ـ لايشير الى النصوص التي استقاها من تلك المخطوطات ولايضعها بين اقواس ولايشير الى رقم الصفحة او الورقة او اسم الكتاب ومؤلفه .. ولايشير ـ ان اشار في النادر جدا ـ الا بطريقة مبهمة وغامضة .. او غير كافية لتحقيق لمنهج العلمي الصحيح في الاشارة الى المراجع والمصادر .

ثالثا : أوحى لنا العقيلي انه قد اعتمد في تأليف كتابه على المخطوطات المذكورة
ولكننا نجده يقول في الصفحة ٦٧ من الطبعة الثانية مانصه :
(لم نعثر على تاريخ مستقل لتهامة في الثلاثة القرون الاولى للاسلام نرجع اليها
استقراء احداثها ودراسة احوالها السياسية والاجتماعية والعمرانية)
ورغم اشارته الواضحة هذه نجده يورد في كتابه طائفة كبيرة من الاخبار والحوادث
التاريخية والاحوال السياسية والاجتماعية والعمرانية ليس بالنسبة للقرون الثلاثة الاولى
فحسب .. بل بالنسبة لما قبل الاسلام .
ومعنى ذلك بوضوح ان الاستاذ العقيلي قد اعتمد في مؤلفه على مراجع ومصادر اخرى
غير المخطوطات الموجودة لديه
ولاشك انه قد رجع ـ فيما رجع اليه ـ الى مصادر مطبوعة متداولة او مخطوطة ـ سيان
ولكننا نجده يورد تلك الطائفة الكبيرة من النصوص او مما استقاه من تلك النصوص دون
ان يشير الى مرجع كل نص .. او مراجع تلك المعلومات العديدة التي اوردها في كتابه سواء
معلومات وتواريخ ماقبل الاسلام .. او معلومات وتواريخ عن القرون الثلاثة الأولى في صدر
الاسلام .. ونجده يتوسع كثيرا في ذلك خاصة فيما يتعلق بدول وحكومات اليمن لأن
المراجع عنها متوفرة وميسورة .. ولا يعفيه من ذلك إيراد قائمة بالمراجع التي استفاد منها !!
أما بالنسبة للمخلاف السليماني أو مقاطعة جازان حاليا ، وهي موضوع الكتاب أصلا
فاننا لانجد التوسع والتفصيل إلا في الحقبة التاريخية الحديثة .. أي منذ أيام حكم
الأدارسة أو الأشراف أو العهد السعودي الأول .. وكذلك بعض الجوانب من أواخر العهد
التركي .
وسبب هذا التفصيل والتوسع في هذا الجانب بالذات ـ أي الجانب الحديث من تاريخ
المنطقة ـ هو وفرة المعلومات لدى الأستاذ العقيلي من المخطوطات الموجودة لديه .. أو مما
استعاره وأطلع عليه .. ولكنه حتى في هذا الجانب أيضا لايشير الى مصادره بغير قوله في
المقدمة (توفرت لدي مخطوطات نادرة الوجود فاقتنصت فرصا من أوقاتي شغلتها بما أرجو
أن يكون ذا فائدة من تأليف هذا التاريخ)
ولكن هذه الاشارة وحدها لاتكفي منهجيا حيث لابد من الاشارة الى مصادر

النصوص والمعلومات في كل موطن تذكر فيه من الكتاب .. كما هي أبسط قواعد المنهج العلمي الحديث

ومما يدلنا على ضن الأستاذ العقيلي بمصادره المخطوطة النادرة الوجود .. ليس كونه لايشير اليها متى وجبت الاشارة .. بل كونه أيضا لم يبرز منها الى النور مايتعلق بالجانب التاريخي رغم أنه قد أبرز بعض مايتعلق منها بجانب الأدب والشعر مثل ديوان « ابن هتيمل » وغيره فما عدا مما بدا .. وعلى ماذا يدل هذا متى دل على شيء؟!

رابعا : رغم كل ماذكرناه ومالم نذكره مما من شأنه ان لايجعل للكتاب أية قيمة علمية أو تاريخية يمكن أن تذكر ... ولكنه ـ أي الكتاب وبرغم كل ذلك ـ قد حقق بالفعل قيمة لايستهان بها .. وذلك لسبب بسيط جدا هو انه لايوجد بين أيدي القراء أي تاريخ مستقل عن هذا الجزء العزيز فجاء هذا الكتاب على طريقة المثل الشائع في منطقة جيزان « الأعور في بلاد العمي فاكهة » !!

ملاحظات عامة

ولنا بعد ملاحظات عابرة .. أهمها عدم وجود فهرس للأعلام سواء في الطبعة الأولى من الكتاب أو في الجزء الأول من الطبعة الثانية ولعل المؤلف يتدارك ذلك في الجزء الثاني من الطبعة الثانية حيث لايمكن ان يخفى على مثل العقيلي مدى أهمية مثل هذا الفهرس .. وخاصة بالنسبة للباحثين .. وهو الذي ـ لاشك ـ قد عانى الكثير من المراجع التي لاتوجد بها مثل هذا الفهرس ونحوه من الفهارس التي تعين الباحث في الحصول على بغيته بسهولة ويسر .

وأما الملاحظة الثانية والأخيرة فهي أن الأستاذ المؤلف قد اقتطع من الجزء الأول .. ومن صدره بالذات ٢٦ صفحة بالتمام والكمال خصصها لما أسماه (كلمات التقريظ والثناء التي وردت للمؤلف) .. وهو يقصد رسائل المجاملات التي وردته بعد نشر الطبعة الأولى للكتاب .

ومن الطبيعي جدا أن تكون رسائل المجاملات هذه حافلة بالثناء والتقريظ الى حد المبالغة .. بل الامعان في المبالغة ـ كما جرت العادة ـ!!!

ومثل هذا الأسلوب في نشر رسائل الثناء والتقريظ كان متبعا ، وربما مقبولا قبل أكثر من نصف قرن .

أما الآن فهو غير مقبول ولا يستسيغه القراء ولم يعد يلجأ الى مثل هذا الأسلوب المجوج أي مؤلف معاصر يحترم نفسه وقدره .. ويعرف أن نشر رسائل الثناء والتقريظ لاتزيد من قدره .. بل تغض منه .. وكنت ـ علم الله ـ أربأ بالأستاذ العقيلي عن ذلك .. بل كنت أتوقع منه أن ينشر في هذه الطبعة الثانية كل ما يمكن نشره من النقد الذي وجه اليه عند صدور الطبعة الأولى .

كما كنت أتوقع منه أيضا ان ينشر في هذه الطبعة رده هو نفسه على اللغط الذي دار حول موضوع كتاب الشيخ عبد الله العمودي الذي أشرنا اليه في هذا الموضوع .. فقد كان ذلك ونحوه احرى واجدر من رسائل الثناء والتقريظ والمجاملات .

عكاظ ٩/ ٧/ ١٤٠٢ هـ

المعجم العربي.. نشأته وتطوّره

المعروف ان الكتب التي يتقدم بها أصحابها من أجل نيل اجازة أو شهادة الدكتوراه
كون علي جانب كبير من الدقة في المنهج والتركيز في المحتوى لعله من أجل أن مؤلفيها
عرفون ان هناك لجانا تنتظرهم للفحص والنقد بالاضافة الى الأستاذ المشرف الذي يوجه
يسدد ، بينما نجد كثيرا من المؤلفين حتى من حملة شهادات الدكتوراه أنفسهم يتهاونون
كثيرا أو قليلا بنسب متفاوتة في كتب أخرى بعد نيلهم الدكتوراه وكأنهم لا يحسبون حسابا
لقراء على أنهم أيضا هيئات ولجان تناقش وتفحص بدقة . ان رسالة الدكتوراه تحتاج عادة
لى مدى طويل من أجل دقة البحث ، بينما نجد بعد ذلك سيلا من الكتب لهؤلاء الدكاترة
و بعضهم بالأصح ، في مدد قصيرة جدا ، وفي موضوعات أكثر خطورة ، فكأن الدكتور
كتفي بأن يكون دكتورا بكتاب واحد ، ثم ينهال بسيل عرم من الكتب علي حساب رصيد
دكتوراه ..

والكتاب الذي نقدمه اليوم « المعجم العربى .. نشأته وتطوره للدكتور حسين نصار »
هو من كتب الدكتوراه ، أي أن صاحبه قد تقدم به لنيل شهادة الدكتوراه ، وقد نالها به
فعلا ، بحق وجدارة ، ليس في نظري فحسب .. بل في نظر اللجنة ، ولابد ان يكون في نظر
معظم القراء ..

ذلك لأنه قد تعرض بالدراسة المركزة الواعية لجانب مهم ، هو جانب (المعاجم
العربية) والمراحل التي مرت بها منذ التدوين الى الآن ، وقد سد بذلك ثغرة لم يسبقه
اليها غيره ، وخطا خطوة في هذا الميدان الرحب لم يخطها غيّره قبله ، وان كان الميدان
ما زال رحبا ، وفي حاجة الي كثير من الخطوات والجهود .

وهذه هي الطبعة الثانية من الكتاب ، وقد طبعت عام ١٩٦٨ م . .

أما الطبعة الأولى فكانت عام ١٩٥٦ م ، أي قبل ١٦ عاما ، وقد طبعت ـ اي

الطبعة الأولى ـ علي نفقة السيد حسن الشربتلي ، والعجيب انه علي الرغم من ان هذ
الكتاب قد طبع اول طبعة علي نفقة تاجر سعودى ، فضلا عن انه ـ اي الكتاب ـ من
الأهمية بمكان إلا أننا هنا .. أو معظمنا .. أو بعضنا ، لم نسمع بهذا الكتاب ولم ندر عن
حتي بعد طبعته الثانية ، واقول هذا حسب علمي أنا ، فقد عثرت عليه في احدى مكتبات
الرياض قبل عام تقريبا ، وقرأته وأعجبت به كثيرا فذكرته في مجلس الأستاذ عبدالعزي
الرفاعي لعدد من الأدباء الكبار فلم اجد عندهم علما عنه ، وحدثت عنه احد كبار أدبائن
فلم اجد عنده علما عنه ايضا فأهديته نسختي ، واشتريت لنفسي نسخة اخرى ، ثم ذكرت
هنا في جدة لعدد ممن هم علي سعة علم بالكتب ، وخاصة في هذا المجال فلم اجد عند
علما عنه ..

وكل ذلك ليس غريبا ، مهما كان شأن الكتاب ، ولكن الغريب ان يطبع طبعته الأول
علي نفقة تاجر سعودي هو السيد حسن الشربتلي .. ثم لا يهدى الى أدباء المملكة عل
الأقل ، أم ترى مكتب السيد الشربتلي لا يعرف عناوين أدباء المملكة ؟؟

لقد استطردت كثيرا ، وهذا الاستطراد يجرني الي استطراد آخر ـ الاستطراد في الأدب
العربي ميزة وليس مذمة ـ هو ان عندنا الآن غير قليل من الدكاترة السعوديين
لم يستطيعوا طبع رسائلهم الى الآن ، وهي تتناول ، أو معظمها ، موضوعات مهمة جدا
ولذلك فهي جديرة بأن ترى النور بأية طريقة كانت .

نعود الي كتاب (المعجم العربى) ، وقد قلنا أنه سد ثغرة في موضوع بحثه ، ونقول
ايضا انه قد حالفه التوفيق .. فأنا اعتقد بل أجزم انه ليس هناك أية أمة من الأمم لديه
مثل أو أقل مما لدينا من تراث ، وبذلت كل هذا القصور والاهمال من أجله ، إذا كان
القصور والاهمال من الأشياء التي تبذل ..

ان تراثنا مشتت من جهة ، غير مدروس من جهة اخرى ، وهو من جهة ثالثة كأي
تراث قد مر بمراحل عديدة ، وطرق تناول مختلفة ، وهو الآن في أمس الحاجة الى جمع
أولا .. ثم ترتيب ثانيا .. ثم افادة منه ثالثا .. بأيسر الطرق والأساليب الحديثة .

واني لأتساءل ، ونحن الآن في مجال واحد من تراثنا هو تراث المعاجم ، من من طلاب

الثانوية أو الجامعة ايضا يستطيع ان يهتدي بسهولة الي اية كلمة يريدها في (لسان العرب) لابن منظور مثلا ؟ مع انه قد انتظم الكثير من المعاجم العربية مما قبله في ترتيب حديث بالنسبة لتاريخه ؟ .

ان صعوبة البحث ، وشبه استحالة الاهتداء الى الألفاظ المرادة في المراجع أو المعاجم القديمة بسبب اختلاف طرق ترتيبها عن الطرق الحديثة في ترتيب المعاجم ، جعل منها اي المعاجم العربية القديمة ، كميات كبيرة مهملة اللهم إلا عند قلة من المختصين !!

ولذلك أو بعضه أو أقله ، نحن في حاجة حقا الي جهود علمائنا ومجامعنا وجامعاتنا ومؤسساتنا العلمية الى تنظيم (المعجم العربي) بالشكل الذي نستطيع الافادة منه ، بالاضافة الى كثير من الجهود التي تبذل ويجب ان تبذل في الميادين الأخرى .

ومن أعجب العجب ان السلف من علمائنا قد نظموا انفسهم ـ كما يقول احمد امين ـ « فرقا كفرق الجيش ، كل فرقة تغزو الجهل والفوضي في ناحيتها حتي تخضعها لنظامها ، ففرقة للغة ، وفرقة للحديث وفرقة للنحو ، وفرقة للكلام ، وهم يتسابقون في الغزو والانتصار وتدوين العلوم وتنظيمها ، تسابق قبائل العرب في الفتوح والغزوات » .

أما الأفاضل من باحثينا الآن فلم يتنبهوا ـ أو هم قد تبنهوا واستبدت بهم الأنانية ـ الى فضل الجهود الجماعية في كل ناحية من النواحي .

قد يذكر قارىء المجمع اللغوي أو غيره .. فنقول : ماهي الجهود التي أثمرت عن اجتماعاته ؟ ، ولاشك انه قد اثمر بعض الجهد ، ولكن الجهود الفردية لبعض اعضائه او غير اعضائه اهم من ثمرة جهود اعضاء المجمع بكاملهم ، لعله الروتين ، أو طريقة ادارة الجلسات ، أو الأثرة والأنانية من بعض الأعضاء أو كلهم ، هي السبب !!

أما الجامعات العربية فهي لا تعدو كونها مدارس لتخريج الموظفين أو نحو ذلك !!

اما البحث العلمي الجاد في تراثنا ، واما الأعمال الكبيرة والجادة مثل المعاجم وغيرها ، فكأنما ذلك ليس من صميم رسالتها !!

ولقد استطردت مرة اخرى ، ولكن لم ابعد عن موضوع الكتاب ان شاء الله ..

محتويات الكتاب ومنهج بحثه

يقع الكتاب في حوالي ٨٤٠ صفحة مقسمة علي جزءين ، ومحتوياته علي النحو التالي :

١ ـ وضع المؤلف بين يدي بحثه مقدمة مستفيضة مركزة عن موضوع بحثه ، ومنهجه في البحث ، وهي مقدمة تدل علي وعي كبير ، والمام واسع بموضوع البحث .

٢ ـ مهد المؤلف ايضا بفصل خاص لموضوع كتاب بعنوان (العرب والعربية) استعرض فيه اهم جوانب التمهيد للبحث ومنها بداية التدوين في صدر الاسلام ، وكيف ان أول حركة علمية ، هي تفسير غريب القرآن ، وكيف ان التأليف أو التدوين لم ينشأ إلا بعد ان تفشت العجمة وغلب الجهل فتنبه القوم الى ضرورة التفسير والشرح ووضع القواعد والمتون .

وأشار ايضا الى انه عند بداية التأليف لم يكن ينزع المؤلفون الى الاطالة لأن (الناس يومئذ كان فيهم بقية ، وعندهم معرفة ، فلم يكن (الجهل قد عم ، ولا الخطب قد طم) كما يقول ابن الأثير .

وأشار المؤلف ايضا الى ان العلوم الدينية كانت (أسبق العلوم ظهورا واكثرها سيادة على المجتمع العربي في اكثر عصوره ، وكان للفقه من هذه العلوم منزلة خاصة) .

وهذا حق ، مع ان المؤلف لم يشر الى اسباب ذلك ومسبباته ، وعذره واضح فليس ذلك من منهج بحثه ، ولكن عندما يصل القارىء الى مثل هذه الاشارات المهمة ، لابد أن يعرف الأسباب والمسببات ولو في إلمامة وجيزة أو إشارة إلى المراجع المعنية بذلك . فالقارىء الذي يقرأ مثل هذه الاشارة ، اشارة ان العلوم الدينية كانت أسبق العلوم ظهورا واكثرها سيادة على المجتمع العربي في اكثر عصوره ؛ لابد ان يتساءل ضمنا عن أسباب تخلف الفنون الأخرى في الأدب كالتمثيل والرسم والنحت والموسيقي وغير ذلك ، ثم لابد ان يقارن هذا القاريء في ذهنه مدى تقدم هذه الفنون في حضارات الأمم الأخرى .. بل انه ـ أي القاريء ـ قد يستغرب مدى اهتمام الحضارة العربية الاسلامية بكثير من العلوم المهمة دون اهتمامها بالفنون المشار اليها آنفا .

وكل ذلك لم يذكر عنه المؤلف شيئا عند اشارته تلك ، وعذره ان ذلك ليس من منهج بحثه . وكان المفروض ان اشير انا بما أعلم في هذا السبيل ، ولكن ذلك يستغرق مساحة كبيرة .. ثم يخرج بنا عن موضوع استعراض الكتاب ونقده ، ولكن أعد ـ ان شاء الله ـ ان اعود لهذا الموضوع .

٣ ـ بعد المقدمة والتمهيد قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة كتب :

١ ـ الكتاب الأول (الرسائل اللغوية على الموضوعات) وهو من عدة ابواب ، الباب الأول : كتب الغريبين والفقه ، غريب الحديث ، معاجم الفقه .

الباب الثاني (كتب اللغات والعامي والمعرب) ، لغات القرآن ، لغات القبائل ، المعرب ، المعاجم المتعددة اللغة (وهي التي تورد اللفظ بمعناه في اللفظ الفارسي أو التركي أو غير ذلك من اللغات الأجنبية) ، كتب لحن العامة .

الباب الثالث : (كتب الهمز) .

الباب الرابع : كتب الحيوان ، الحشرات ، الخيل ، خلق الانسان .

الباب الخامس : كتب النوادر .

الباب السادس : كتب البلدان والمواضع .

الباب السابع : كتب الافراد والتثنية والجمع .

الباب الثامن : كتب الأبنية ، المصادر ، الصيغ الخاصة من الأفعال ، الأفعال عامة ، أمثلة الأسماء ، الأبنية عامة .

الباب التاسع : **كتب الصفات .**

٢ ـ الكتاب الثاني (المعاجم) ، وهو من عدة ابواب .

الباب الأول (المدرسة الأولى) ، كتاب العين ، كتاب البارع ، كتاب التهذيب ، كتاب المحيط ، كتاب المحكم ، خصائص المدرسة وعيوبها .

الباب الثاني (المدرسة الثانية) ، كتاب الجمهرة ، المقاييس ، المجمل ، خصائص المدرسة وعيوبها .

الباب الثالث (المدرسة الثالثة) ، كتاب الصحاح ، العباب ، لسان العرب ، القاموس المحيط ، تاج العروس ، المعيار ، خصائص المدرسة وعيوبها .

الباب الرابع (المدرسة الرابعة) ، كتاب أساس البلاغة ، معاجم اليسوعيين ، مشروعات المجمع اللغوي ، خصائص المدرسة وعيوبها .

٣ ـ الكتاب الثالث (المعاجم التي نحتاج اليها) ، عيوب المعاجم القديمة ، خصائص المعاجم ، خاتمة .

تلك هي محتويات الكتاب ، وما كنت لأورد هذا الفهرس ، وليس ذلك من عادتي في تقديم الكتب ، لولا ان ذلك يدل اكبر دلالة على اهمية الموضوعات التي تطرق اليها الكتاب بالشرح والتفصيل بكل دقة .. فكأنني اقول . انني لم أثن علي هذا الكتاب إلا لتناوله مثل هذه الموضوعات التي تعتبر بكرا فى ميدانها .

منهج البحث

أما منهج البحث في الكتاب فهو منهج علمي حديث بكل معني الكلمة ، أو بقدر ما استطيع ان افهم انا وامثالي بل واللجنة المشرفة انه اقصى ما يمكن ، ولذلك لست اجد في تعريف هذا النهج بأقصى ايجاز خيرا مما فعل الأستاذ المشرف ، مصطفى السقا .. حيث قال :

« يقوم عمل المؤلف ، علي وصف المناهج العامة بالمعاجم ، وتحليل مواد جزئية من كل معجم ، واحصاء النتائج ، من خصائص ومآخذ ، ثم المضاهاة بينها وبين نظائرها في معجم آخر ، وتنسيق الوحدات التي تلتزم نظاما معينا مشتركا بين اصحابها ، مما سماه الباحث (المدرسة اللغوية) ثم استخلاص الخصائص العامة لكل مدرسة ، والدلالة علي مراحل التطور فيها ، متي بدأت ؟ واين انتهت ؟ ومن صاحبها ؟ ومتى حدث تطور آخر جديد ؟ وعلي يد من ؟ وهكذا يتتبع الجزئيات ويترقى منها الى الكليات ، ويؤلف بينها ، حتي يجعل من مجموعها نظاما تأليفيا ذا طابع خاص ، يعرفه القراء للمعاجم في صورته الأخيرة ، ولكنهم يجهلون الأطوار التاريخية التي مهدت لظهوره ، والجهود المضنية التي أدت اليه . »

أما الغرض من البحث فهو كما نلخصه من قول الأستاذ المشرف نفسه .

١ ـ (تدوين تاريخ شامل للمعاجم العربية) .

٢ ـ « وضع الصوى والاعلام في طريق اللغويين المحدثين من العرب ، الراغبين في تأليف المعاجم اللغوية الحديثة » .

ولا استطيع ان ازيد علي ذلك ايضاحا لمنهج بحث الكتاب نظرا لضيق المساحة المحدودة لهذا الاستعراض ، فضلا عن انني قد أشرت في المقدمة اشارات كافية ، كما اعتقد .

هوامش وملاحظات

أما ملاحظاتي المتواضعة علي الكتاب فقبل أن أوردها أود أن أكرر الاشارة الى ان الكتاب ، رسالة علمية تقدم بها صاحبها لنيل الدكتوراه وقد فحصتها لجنة من علماء كبار وأقرتها ، والى انني قد أشدت كثيرا بطريقة التناول ، وعذرية الموضوع ، ومع ذلك وغيره فان لي بعض الملاحظات أو التهميشات المتواضعات كما يلي :

١ ـ قسم المؤلف ، المعجمات الكبيرة والصغيرة أيضا الى مدارس وحاول الربط بين هذه المدارس باستخراج آثار الأولى منها في الأخيرة ـ وهذا تعبيره .

والحقيقة ان اطلاق كلمة « مدرسة » أو مدارس على كل مجموعة من المعاجم ، لمجرد اجتماعها في منهج أو خطة بحث او زمن فيه إجهاد لمعنى كلمة مدرسة أو مدارس .

وكان أحرى بالمؤلف ان يسمي ذلك مرحلة أو مراحل تطورات المعجم العربي ، وهي ملاحظة بسيطة ، ولكن التعبير بمعنى « مدرسة » في مثل هذا الشأن ، انما هو انسياق غير واع أو مدرك وراء التعبيرات الغربية . بينما المؤلف يتحدث عن « معاجم » عربية .

والعجيب انني بعد أن كتبت هذه الملاحظة ـ علم الله ـ لاحظت ان المؤلف قد استعمل بالضبط كلمة « مرحلة » أو مراحل ، وذلك في صفحة **٣٥** ج ١ بينما كانت ملاحظتي منصبة منذ البداية علي ما ذكره المؤلف في المقدمة ص **٧** مع انه ـ أي المؤلف ـ قد استمر في استعمال مدرسة ومدارس في سائر الكتاب وفي عناوين بعض الفصول ايضا .

ومن هذا القبيل في عدم استعمال الدقة في البيان ، لاحظت ان المؤلف لا يبـالي « احيانا » بهذه الدقة ، ولست بسبيل احصاء هذه الهنات ، وانما اشير مثلا الى قوله .

(وكان نشاط المسلمين في ذلك يسترعي الأنظار ويستخرج العجب) ص ٣٣ ج ١ .. فكلمة « يستخرج » ركيكة وفي غير موضعها ، وإلا فهل العجب ، مخبأ في خدر أو قصر .. أم هو في بئر حتى يستخرج ؟

ومع ان هذا الكلام .. يحتمل ان يكون من نص الأستاذ أحمد أمين الذى استشهد به المؤلف إلا اننا لا نعرف هل هو من نص أحمد أمين أم هو من عند المؤلف .. ذلك ان نهاية الكلام قد اقفل بقوس ، واشير الى انه من كتاب « ضحى الاسلام » بينما ليس هناك أي قوس في بداية الكلام ، ولعله خطأ مطبعى ، ولكن ذلك لا يعفي المؤلف على كل حال .

٢ ـ ناقش المؤلف ، الأستاذ احمد امين في موضوع مراحل ـ وانتبهوا لكلمة مراحل ـ ووافقه على كثير من آرائه ولكنه لم يسمه باسمه ، بل كنى عنه بقوله : « أحد الباحثين المحدثين » أو « هذا الباحث » واكتفى ان يشير بقوله (المرجع السابق ص كذا) ، والمرجع السابق هو (ضحى الاسلام) لأحمد امين ، فلماذا هذه التغطية والساق مكشوف ؟ .

٣ ـ لاحظت ان المؤلف يذكر اسماء المؤلفين في بعض الفنون وخاصة في موضوع بحثه فيقول : ألف في هذا الفن فلان وفلان ولكنه لا يذكر حتى أسماء كتبهم ، فضلا عن وصفها ، والمطبوع منها أو غير المطبوع ، والموجود منها أو غير الموجود ، كما هو شأنه ـ أي المؤلف ـ فيما ذكره عن (كتب الخيل) و (كتب خلق الانسان) وغير ذلك .

وكان الأجدر به أن يسمي كتب هؤلاء على الأقل ، وأن يشير منها الى المخطوط أو المطبوع كما فعل في بعض فصول الكتاب .

٤ ـ في كثير من فصول الكتاب ، يذكر المؤلف أسماء المؤلفين في موضوع الفصل واسماء كتبهم ، ولكن بطريقة سردية خالصة ، وكان الأفضل ان يشرح غاية الفصل وبحثه والمقصود منه .. ثم يورد في نهاية الفصل قائمة باسماء الكتب ومؤلفيها الذين ألفوا في موضوع الفصل ، بدلا من السرد الممل الذي انتهجه المؤلف ، والذي يضطر القارىء

لقراءة الفصل كاملا بينما هو مجرد بيان باسماء الكتب والمؤلفين صيغ بطريقة اخرى طويلة لا لزوم لها .

قد يقول المؤلف .. انني فعلت ذلك لأنني اضطر احيانا الى وصف بعض الكتب او الاشارة الى بعض الجوانب فيها ، واقول جوابا على ذلك انه كان يمكن أن يصدر الفصل ببحث عن موضوعه ، ثم يثني بوصف الكتب او ذكر الجوانب التي يرى انها مهمة فيها ، ثم قائمة المؤلفات عموما .

وتلك هي ملاحظاتي المتواضعة .. وهي ملاحظات لا تقلل أبدا من أهمية الكتاب وريادته .

البلاد ٧ / ٢ / ١٣٩٢ هـ

الأدب العربي في آثار الدارسين

اعتادت الجامعة الأمريكية في بيروت .. ان تطرح بين عام وآخر أحد الموضوعات الفكرية أو الأدبية .. وتعهد الى مختصين بدراسته ومناقشته .. ثم تجمع هذه الدراسات والمناقشات وتصدرها في كتاب .. و« الأدب العربي في آثار الدارسين » أحد هذه الكتب .. وقد صدر منذ حوالي ثماني سنوات أي ١٩٦١ م .. ولكن لم يتح لي الحصول والاطلاع عليه إلا مؤخرا ..

واعتقد ان قيمة هذا الكتاب لا يمكن أن تتأثر بزمن لا من ناحية قيمته الفكرية ، وهي ناحية لا غبار عليها .. وانما من ناحية ان هذا الكتاب سيظل خير عون للباحثين والدارسين ذلك لأنه يعرض لما « اسهم به المؤلفون العرب في المائة سنة الأخيرة في دراسة الأدب العربي » .. وهذا الموضوع علي جانب كبير من الأهمية .. فما بالك وقد طرق الموضوع ـ بين دفتي الكتاب ـ عدد من المختصين تناوله كل واحد منهم من زاوية اخرى علي النحو التالي :

١ ـ العصر الجاهلي ـ الدكتور صالح احمد العلي .
٢ ـ صدر الاسلام ـ الدكتور وليد عرفات .
٣ ـ العصر الأموي ـ الدكتور جبرائيل جبور .
٤ ـ الشعر العباسي حتي آخر عهد المتنبي ـ الدكتور انطون كرم .
٥ ـ الشعر العباسي من المتنبي حتى سقوط بغداد ـ الدكتور عمر فروخ .
٦ ـ النثر في العصر العباسي ـ الأستاذ موسى سليمان .
٧ ـ الأدب الفاطمي ـ الدكتور محمد كامل حسين .
٨ ـ الأدب في الأندلس والمغرب ـ الدكتور احسان عباس .
٩ ـ الأدب العربي من سقوط بغداد حتى أوائل النهضة ـ الدكتور شكرى فيصل .
١٠ ـ الفنون الأدبية ـ الدكتور محمد يوسف نجم .

ومعذرة لايراد هذا الفهرس للموضوعات .. فقد تراءى لي ان ايراده من الضرورة بمكان ليتبين لقارىء هذا المقال أهمية وخطر الموضوعات التي تصدى لها هؤلاء الكتاب من ذوي الاختصاص .

قدم كل واحد منهم لموضوعه بدراسة تحليلية ـ لوحظ ان جميع الموضوعات روعي فيها الايجاز الشديد ـ ثم الحقها بفهرست شامل للكتب والمقالات التي امكنه الاطلاع عليها او العلم بها مما صدر في المائة سنة الأخيرة ومما يتعلق بالموضوع ..

وهكذا اصبح لدى الباحث امكانية الالمام بجانب كبير مما صدر من الكتب والمقالات في المائة سنة الأخيرة مما يبحث في الموضوعات الآنفة الذكر ..

وتلك لعمري أهم ميزة من مزايا هذا الكتاب .. ذلك لأنها ستقدم للباحث عونا كبيرا ، وتسهيلا ميسورا يهديه لمصادر أية دراسة يود ان يقوم بها في أي جانب من جوانب هذه الموضوعات .

فضلا عن ان هذا الكتاب قد سجل ـ سواء عن طريق الدراسة أو الفهارس ـ الملامح والسمات الفكرية والأدبية خلال مائة عام ، وهذه وحدها ميزة اخرى مهمة .

ولا أود ان استمر في سرد مزايا هذا الكتاب .. كذلك لا أهدف لمناقشة الآراء والأفكار التي ضمها بين دفتيه .. لأن قيمة الكتاب عندي لا تنحصر في هذه الدراسات الموجزة عن موضوعات هامة .. وانما تأتي قيمة الكتاب في الدرجة الأولى من هذه الفهارس للمقالات والكتب التي تحتل ـ أي الفهارس ـ معظم صفحات الكتاب ..

والعجيب جدا ان هذا الكتاب يسير علي نفس النهج ـ تقريبا ـ الذي انتهجه ابن النديم في كتابه « الفهرست » .. أي ان ابن النديم قد سبق الجامعة الأمريكية الى هذه الفكرة .. إلا أن ابن النديم لم يحصر موضوعاته بفترة معينة .. وانما قسم كتابه الى عشرة ابواب او عشر مقالات ـ كما يسميها ـ كل مقال في علم او فن من الفنون ، ثم يتبع المقال ببيان اسماء الكتب التي ألفت في موضوعه ..

والعجيب الأعجب ان تتبع الجامعة الأمريكية نفس التقسيم فقد جعلت من كتابها هذا عشرة اقسام كل قسم لموضوع بعينه متبعة اياه ببيان اسماء الكتب التي تتعلق به وصدرت في المائة سنة الأخيرة ؟

ترى ماذا ترك الأول للآخر ؟

وهذه مجرد ملاحظة عابرة لم اقصد بها المقارنة بين كتاب وكتاب ..

بقي ان اشير الي ان الفهارس لا تشمل كل ما صدر من الكتب والمقالات والأبحاث خلال المائة سنة الأخيرة .. وانما تشمل كل ما أمكن لمؤلفي الكتاب الاطلاع عليه او العلم به .. ولقد اشتكى معظمهم مر الشكوى من المعاناة التي كابدها كل واحد منهم في سبيل الحصول علي ما قدم من فهارس .

حاجة الباحثين
إلى الفهارس المنظمة

والحديث عن هذا الكتاب « الأدب العربي في آثار الدارسين » يجرنا الى الحديث عن الحاجة الماسة التي يعانيها الباحث العربي عند البحث عن المصادر والمراجع التي تهمه ..

ترى من المسئول عن عدم وجود فهارس منظمة للمطبوعات العربية في كافة اقطار العروبة أو غيرها ؟

طرحت هذا السؤال على نفسي .. فتذكرت على الفور كتاب « ثقافتنا في جامعة الدول العربية » للمرحوم الأستاذ ساطع الحصري .. وهناك وجدت الجواب فعلا .

ان المسؤول عن عدم وجود فهارس منظمة للمطبوعات العربية هو « الادارة الثقافية » بجامعة الدول العربية .. فلقد اشار الأستاذ ساطع الحصري في كتابه الآنف الذكر ص ٥٨ ط بيروت ، الي ان اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية قد قررت عام ١٩٤٨ م ان تقوم الادارة الثقافية بالجامعة بطبع وتوزيع فهرست دوري يشمل كل ما يطبع وينشر من الكتب والمجلات في مختلف البلدان العربية ، وذلك بعد ان تقوم بتوجيه الدعوة لوزارات المعارف وادارات المطبوعات في كل بلد عربي لموافاتها بفهرست دوري بالكتب والمجلات .

ولكن هذا القرار لم يوضع قط موضع التنفيذ لدى الادارة الثقافية بالجامعة .. كأنما هي تنتظر لتنوب عنها الجامعة الأمريكية في هذا الصدد .. وربما غيره ..

البلاد ٢١/ ٦/ ١٣٨٩ هـ

قصَّة الأدب في اليمن

« لعل الأدب اليمني هو الأدب الوحيد ـ بين آداب اللغة العربية ـ الذي لم يعن به الأدباء .. لا أقول العناية التامة .. بل حتى ولا القليل منها .. لا من قبل أدباء اليمن ولا من قبل أدباء العربية ومؤرخي آدابها في الأقطار الأخرى على السواء .. النثر منه والشعر .. المحكم ، والحميني ، والقديم والحديث » .

تلك هي فقرة من المقدمة التي وضعها مؤلف هذا الكتاب « قصة الأدب في اليمن » ، الأستاذ احمد محمد الشامي بين يدي كتابه هذا الذي نحن بصدد استعراضه اليوم ، وإن كان قد مضى علي صدوره حوالي سبع سنوات فهو قد طبع عام ١٣٨٥ هـ ، إلا انه لا يزال يتمتع بالجدة في موضوعه .

ويرى الأستاذ الشامي ، ورأيه الحق ، أن من أسباب ذلك ، أسباب عدم عناية المؤرخين والأدباء العرب وغير العرب بالأدب اليمني أن « اليمانيين لم يعنوا بنشر تراثهم وكتبهم ، ودواوين شعرائهم ، وآثار ادبائهم ، ولم ينفقوا ما يجب في سبيل بثها ليسهل علي الأدباء في الأقطار العربية الشقيقة قراءتها ودراستها والاطلاع عليها فيحتفوا بها ويقدروها حق قدرها » .

ويري ايضا ـ أي المؤلف ـ أن كبار أدباء العربية لم يبذلوا أي مجهود أو محاولة لكشف النقاب عن « الكنز الدفين » ، ويقول بان مخطوطات يمنية جمة ، وان (بعض فضلاء اليمن وعددا من المستشرقين قد عنوا بطبع عدد قليل من تلك الآثار الفكرية ، وان كل ذلك كان يستحق أن يشار اليه وأن يقتبس منه .. بل ويصلح ان يكون مصدرا غنيا لبحث ودرس وتاريخ) !

وما أشار اليه الأستاذ الشامي حقيقة واقعة ليس بالنسبة للأدب اليمني فحسب ، بل لكثير من آداب الأقطار العربية الأخري ، فمعظم الدارسين يكتفون بدراسة الحركة الأدبية في مصر أو سوريا أو لبنان أو بغداد علي اكثر تقدير !!

أما بقية الأقطار العربية . وهي الكثرة الكاثرة ، فنصيبها من هذه الدراسات ضئيل جدا .. بل شبه معدوم فكان ينبغي ان يلاحظ الأستاذ الشامي ذلك ويشير اليه ، وهو قد لاحظه لاشك ، إلا انه يؤلف عن (قصة الأدب في اليمن) وليس في الأقطار العربية الأخرى ، على أنه قد أشار الى ذلك من طرف آخر عند التماسه « العذر لأدباء اليمن ، ولأساتذة تاريخ الأدب العربي » ليجنبهم (نصف قرن اخرس) .. الخ .

والحقيقة ان هذا الموضوع ، موضوع ضرورة العناية من قبل الأدباء العرب ، وأساتذة التاريخ العربي بآداب الأقطار العربية في المغرب والمشرق والشمال والجنوب ، يجب أن يكون موضع بحث ونقاش ، فالأهمال الذي تتعرض له آداب الكثير من الأقطار العربية ، وضعف معلومات القارىء العربي في كل قطر بآداب الأقطار الأخرى أمر يؤسف له خاصة في عصر النهضة ، ويسر وسائل المواصلات ووفرة اسباب الاتصال .

ولنعد الى (قصة الأدب في اليمن) .. إن هذا الكتاب خطوة رائدة في ميدان التعريف بالأدب اليمني ودراسته ، ومؤلفه من خيرة رجالات أدباء اليمن البارزين .. بل هو أيضا من كبار المسؤولين في اليمن ، وقد تقلد عدة مناصب هامة في عهود مختلفة في بلاده .

وواضح من جهوده البارزة التي بذلها في تأليف هذا الكتاب ، أنها تكاد تضاهي ما لاقاه من عنت ومشقة في تقلد المناصب ومسئوليات الحكم !!

وأنا علي يقين بأن الأستاذ الشامي ، لو تيسرت له أسباب التفرغ من مسئوليات السياسة والحكم لأمكنه أن يملأ رفا كبيرا في المكتبة العربية عن تاريخ الأدب في اليمن .. بل عن التاريخ اليمني عموما ، فهو واسع الاطلاع ، غزير الثقافة والمعرفة ، وهو الى جانب ذلك قد عارك الحياة اليمنية في قمة وذرى أطوارها وعركته وعركها ، فهو لذلك يعرف من أسرارها وخفاياها الشيء الكثير !!

وهو الى جانب ذلك ولوع بالأدب والشعر ، فهو شاعر ، الي حد الهيام والفتنة !!

ويكاد يكون كل رجالات اليمن شعراء ايضا .. وليس الأستاذ الشامي فحسب .. وهذه خاصية مشهورة عن القطر اليمني الشقيق !!

واذكر انني اجتمعت به ـ أي الشامي ـ قبل سنوات في فندق اليامة بالرياض فرأيته منكبا علي أوراق بين يديه ، وكان ايامها (وزير خارجية) . فلم استطع ان اميزه من هيئته وطريقة انكبابه علي الورق ، هل كان في شأن سياسي أم أدبي ؟ . ذلك لأنه يعيش في السياسة بروح الأديب ، وفي الأدب بحنكة السياسي !!

ولذلك جاء كتابه (قصة الأدب في اليمن) على غاية من الحنكة والذكاء واللباقة وسعة المعرفة ، فانه في بعض فصول الكتاب ، وخاصة في الفصول التالية :

١ ـ حضارة اليمن .

٢ ـ مع علماء التاريخ .

٣ ـ اللغة .

٤ ـ الشعر والشعراء .

قد أوفى مع الايجاز الشديد أهم جوانب هذه الفصول في اليمن .

وانه مثلا في فصل (المسند) ، وقد افرد له ١٤ صفحة ، وهي قليلة جدا بالنسبة للموضوع إلا أنه لم يترك شاردة أو واردة مع ان هذا الموضوع بالذات قد طرق كثيرا من قبل أدباء ومؤرخين من العرب والمستشرقين ، إلا أنه لا ينبئك مثل خبير !!

وكنت أود أن أستعرض جميع فصول الكتاب ، واناقش فيما يعن لي ، ولكن سيطول بي ذلك والحيز محدود ، واملي ان تسعدني فرصة مواتية للعودة الى الكتاب في بحث أوسع ومجال أرحب ، فهو جدير بالمناقشة والعرض والتحليل .

أما الآن فانني اختتم هذه الدراسة المتواضعة بايراد بعض الملاحظات التي دونتها اثناء مطالعاتي للكتاب .

١ ـ بدا لي ان المؤلف شديد الضن بمصادره !!

أو هو كثير الحرص علي الايجاز ، أو هو مالست أدري ، لا يشير عندما يورد كثيرا من النصوص الي صفحات أو أجزاء الكتب التي ينقل عنها ، ومن ذلك ـ مثلا ـ عندما يقول : (ففي كتاب الأغاني عن الأصمعي انه سئل .. الخ) ثم يورد النص ولكن دون

اشارة الي الجزء المنقول منه ورقم الصفحة ، والمعروف ان كتاب الأغاني يزيد عن ٢٠ جزءا وكل جزء يتكون من مئات الصفحات فأين النص في هذا الخضم من الصفحات والأجزاء ؟ .

ومما يزيد دافعنا في مؤاخذة المؤلف بهذا الشأن المهم ، أنه قد أشار فعلا إشارات قليلة الي بعض مصادره ويذكر رقم الصفحة أيضا .. بينما الكثير جدا من النصوص لم يشر الى موضعها في مصادره ، وفي ذلك ما يدعو الى التقليل من شأن كتابه في اعتبارات النهج الحديث في التأليف .

والأدهى من ذلك ان المؤلف لم يثبت قائمة مراجعه في الكتاب !!

٢ ـ فهرست اعلام أدباء اليمن ، أورده المؤلف حسب ترتيب ورودهم في الكتاب ، يذكر رقم الصفحة .. ثم يذكر الأسماء التي وردت فيها ، سواء كان هذا الاسم يبدأ بحرف الياء أو بحرف الألف ، ومثل هذا الفهرس لا يؤدي الغرض منه ، وهو تيسير العون للباحث ، ولو ان المؤلف قد اعتمد طريقة الترتيب الأبجدي في الفهرس ثم ذكر رقم الصفحة لكان ذلك أجدى وأوفى كما هو معتاد فعلا في هذا الشأن .

٣ ـ ليس هناك أي فهرس للاعلام من غير اليمنيين ممن ورد ذكرهم في الكتاب والمفروض ان يكون في الكتاب مثل هذا الفهرس للاعلام اليمنيين أو غيرهم كما هو المعتاد أيضا في هذا الشأن خاصة وقد ورد ذكرهم في الكتاب !

٤ ـ ليس هناك فهرس المواضع ، مع ان هناك مواضع كثيرة مهمة قد ورد ذكرها في الكتاب .

٥ ـ اقحام المؤلف بعض الشؤون السياسية في كتابه .. وأذكر انني عندما التقيت بالأستاذ المؤلف ، كان قد جرنا الحديث الى الاشارة الى هذه الناحية في كتابه ، فقال انه قد تنبه لها وانه سيحذفها من الطبعة أو الطبعات القادمة ان شاء الله .

٦ ـ أفاض المؤلف كثيرا في النصوص التي نقلها أو اختارها لشعراء اليمن بحيث احتلت نصف الكتاب تقريبا ، دون ان يترجم للشعراء المختارين لأنه لا يريد (ان يكون تاريخنا للأدب اليمني كتاب تراجم ووفيات) ومع ذلك فهو قد ترجم لستة شعراء ، وكابد

(عظيما من الضنى والجهد ، وأفنيت كثيرا من الوقت والتفكير كي أميز أخبارهم وأحدد أنسابهم وأزمانهم) الخ .. فهو بذلك يعترف بمدى اهمية التراجم في تاريخ الأدب اليمني أو غير اليمني ، وهو في نفس الوقت لا يريد ان يكون تاريخ الأدب اليمني تراجم ووفيات ؟ .. وان كان يبرر ترجمته لهؤلاء الشعراء الستة بأنهم : (في الواقع أسماء كل اسم منها علم لشاعرين كبيرين ، وكثيرا ما تتردد أسماء هؤلاء الشعراء غير مميزة ، وتختلط أخبارهم وأشعارهم دونما تحديد ، ولكي أجنب المؤرخين والباحثين المشقة والحيرة كان لابد ان اقف وقفة قصيرة للتعريف بهم واحدا واحدا) .

والأستاذ الشامي يعلم ان الغالبية العظمي ممن اختار لهم المقطوعات الشعرية التي احتلت حوالي نصف الكتاب غير معروفين لدى الأدباء العرب ، فكان أحرى به أن (يجنب الباحثين والمؤرخين المشقة والحيرة) فيترجم لهؤلاء الذين اختار لهم المقطوعات الشعرية ، ولو بشكل موجز .

وبعد فالكتاب جدير بالعناية والبحث والدرس ، فهو كما أسلفت خطوة رائدة في ميدان التعريف بالأدب اليمني ودراسته .

البلاد ١٤/ ٢ / ١٣٩٢ هـ

الحميني والموشحات الأندلسية

ظهرت الموشحات الأندلسية في الأندلس ، بعد الفتح الاسلامي وما تلاه من تناحر وفتن حتى استقر الوضع تماما .. وحتى اندمج أهل الأندلس مع العرب الفاتحين إلى حد أنهم ـ أي أهل الأندلس ـ قد نسوا لغتهم تماما ـ فضلاً عن ديانتهم ـ وأقبلوا على اللغة العربية وآدابها إقبالا منقطع النظير حتى أجادوا في ذلك وأفادوا .

وهذه سنة الحياة ، وحتمية التاريخ .. حيث المغلوب لابد أن يقلد الغالب ويحاكيه في جل شؤونه وثقافته ولغته .. فكيف إذا كان هذا الغالب ـ أقصد الفتح الاسلامي ـ لم يأت أصلاً لمجرد أن يغلب وأن يشعر بعزة الظفر ونشوة النصر .. وانما جاء لينشر دين الله الحق .. وليحرر الشعوب من عبوديتها وربقتها .. ثم يترك لها الخيار بين الدخول فى دين الله طوعاً .. أو البقاء على دينهم مع دفع الجزية .. وحتى الجزية لم يكن القصد منها مجرد قهر الشعوب أو هضمها .. وانما كانت ـ أي الجزية ـ لحكمة وأسباب كثيرة .. ليس هنا مجال ذكرها .

مثل هذا الفاتح لابد أن يؤثر تأثيرا كبيراً في الشعوب التي يحررها من ربقتها وعبوديتها أكثر من أي فاتح آخر يكون قصده مجرد الفتح في حد ذاته لقهر الشعوب وإذلالها واستغلال ثرواتها .

فلا غرابة أن يبلغ تأثر أهل الأندلس بذلك الفاتح العربي المسلم ذلك الحد من التأثر الذى نسوا معه لغتهم وثقافتهم وتقاليد حياتهم ، وقبل ذلك ديانتهم المسيحية نفسها .

وكان للثقافة العربية النصيب الوافر من تأثر الأندلسيين بالعرب وتقليدهم ومحاكاتهم .. ولكن ذلك لا يمنع بقاء بعض الرواسب في نفوس القوم من بقايا عاداتهم وتقاليدهم وآدابهم وفنونهم .. حتى أنهم عندما أرادوا محاكاة الشعر العربى لم تسلم محاكاتهم من تلك الرواسب الباقية المتأصلة في نفوسهم من آدابهم وفنونهم وثقافاتهم القديمة

فجاءت محاكاتهم للشعر العربي الفصيح وعروضه وأوزانه ، مزيجا مما ثقفوه منه ومما هو متأصل في نفوسهم من آدابهم وفنونهم .. وبخاصة في مجال الشعر الغنائي بالذات الذي يتطلب مراعاة خاصة للايقاعات الموسيقية .

وكان العرب في الأندلس ـ بعد استرخاء الفتح ـ قد مالوا إلى اللهو والترف فجلبوا المطربين والمطربات من المشرق .. من بغداد والمدينة المنورة وغيرهما .. فكان هذا أيضا مصدرا جديدا من مصادر تأثر الأندلسيين بالفنون العربية أيضا .. ولكن أهل الأندلس أهل ترف ونعيم وطرب وغناء .. فكان لابد ، وقد ثقفوا الفن العربى أن يمزجوه أيضا بما هو متأصل في أعماقهم من فنونهم فنتج عن ذلك بطبيعة الحال ما يمكن أن نعتبره مزجا بين الفن العربي المشرقي وبين الفن الأندلسي .

وكان لابد لهذا المزج فى الثقافة والفن أن ينتج ثقافة أو أدبا أو شعرا بطابع خاص مميز .. وبخاصة ـ مرة أخرى ـ في مجال الشعر الغنائي حيث لابد أن يوجد الشعر المميز الذي يمكن أن يتناسب مع الايقاعات الجديدة الممزوجة ، المشرق والمغرب .

ومن هنا ـ بحكم طبيعة الأشياء .. أو فى تصوري على الأقل ـ نشأ ما يسمى بالموشحات الأندلسية ، وهي ضرب من الشعر امتاز بلينه ورقته وسلاسته .. ثم بخروجه عن عروض الخليل وحتى عن قواعد سيبويه أحيانا .. بل وجدت فيه خرجات أعجمية خالصة !!

وكان الترف واللهو قد بلغ أشده في شتى أنحاء الخلافة الاسلامية حينذاك فشاع الترف واللهو والطرب بصورة لم يسبق لها مثيل ، وان كانت لها جذور قديمة .. سواء في المشرق أو المغرب دون شك .

شاع اللهو والطرب الى حد أن الخلفاء والأمراء والوزراء وسراة القوم ـ في المشرق والمغرب على السواء ـ يتهادون الشعر والأدب والطرب .. فالعربي في المغرب يستقدم زرياب أو غيره من المشرق .. والعربي في المشرق تأتيه القيان المجيدات للغناء والطرب من شتى الأنحاء بما في ذلك الأندلس بطبيعة الحال .

وكانت الموشحات الأندلسية بطابعها المميز ورقتها وسلاستها وجدتها أيضاً وامتيازها بنكهة خاصة متقاربة الى حد بعيد مع الذوق العربي ، وخاصة في مجال الغناء والطرب ..

فكانت لابد أن تنتشر انتشارا كبيرا في المشرق والمغرب على السواء لأنها تلامس الذوق المغربي ، وتساير منذ البداية ذوق المشرق .

ومن هنا ذهب فريق كبير من أدباء العربية ونقادها ـ فيما بعد ـ إلى أن هذه الموشحات الأندلسية ذات أصل عربي خالص .. ولم تنقصهم الأدلة والبراهين على ذلك إذ أن الموشحات ذات جذور عربية بالفعل .. بل أنها نشأت أصلا متأثرة بالشعر العربي واللغة العربية والذوق العربي .. ولكن مع خليط أو مزج أو نكهة خاصة من الذوق الأندلسي أيضا ولغته وثقافته وفنه ، لاشك في ذلك !!

وذهب فريق آخر ، معظمه من المستشرقين الناقمين على العربية وآدابها وفنونها فقالوا بأن الموشحات الأندلسية .. انما هي أندلسية خالصة ذات ايقاع وأوزان استمدها أهل الأندلس من موسيقاهم وأدبهم .

ولكن هذا الفريق الآخر تعوزه الحجة ، وينقصه المنطق ، ويدفعه الهوى والغرض .. فلم يجد من الحجج التى يمكن أن يحتج بها غير وجود بعض تلك الخرجات الأعجمية الأندلسية الموجودة في بعض تلك الموشحات .. وهي حجة واهنة .. ذلك أن وجود الخرجات الأعجمية أو اختلاف الأوزان لا ينفي الجذور العربية للموشحات ، وأقرب دليل على ذلك ـ وان كنا لا نحتاج الى أدلة لدحض مثل هذه الفرية ـ أن الموشحات قد قيلت باللغة العربية أصلا .. وفي هذا وحده ما يكفي لاثبات جذرها العربي ، فضلا عما أشرنا إليه في صدر هذا المقال .. وفضلا عما لم نذكره لضيق المجال .. أو حتى لعدم الحاجة إلى ذكره .

وأخيرا برز تيار جديد من بين أدباء العربية ، يتزعمه في المقدمة الأديب اليمني الشهير الاستاذ أحمد محمد الشامي ، وتبعه آخرون لعل أحدثهم على الاطلاق الأديب الجازاني الشاب الاستاذ عبدالرحمن الرفاعي .

يقول هؤلاء الأدباء ، ويؤكدون أقوالهم بكثير من الأدلة والنصوص والحجج والبراهين ، أن الموشحات الأندلسية إنما هي في الأصل مستمدة من الشعر الحميني اليمني المشهور .

وقد وصل الأمر ـ في هذا الصدد ـ إلى أن الاستاذ عبدالرحمن الرفاعي قد أفرد كتابا بأكمله يقع في ٢٢٤ صفحة من القطع المتوسط صدر أخيرا عن النادي الأدبي بجيزان وعنوانه (الحميني الحلقة المفقودة في امتداد عربية الموشح الأندلسي) .

أفرد كتابه هذا بأكمله لحشد من النصوص القديمة والحديثة .. أراد أن يثبت بها أن الشعر (الحميني) اليمني هو الأصل الحقيقي للموشحات الأندلسية متابعاً في ذلك آراء الاستاذ الشامي وفريقه في هذا الشأن .. بل توسع فيه كما لم يتوسعوا .. وتحمس كما لم يتحمسوا .. ربما لطبيعة الشباب .. وربما لحرارة المنطقة ـ وهذه دعابة ـ وربما ـ وهذا هو الأرجح ـ لغيرته الشديدة على عروبته ، وخاصة حين وجد من المستشرقين من يريد أن يسلخ منها جزءاً مهما عزيزا من تراثها !!

ولسنا هنا بصدد ايراد الحجج والبراهين التى يستند اليها الاستاذ الشامي أو الاستاذ الرفاعي .. ولو أردنا ذلك لما استطعنا لكثرتها .. وأما عن هذه الحجج أو تفنيدها فهو يحتاج الى مجلد بأكمله .

ولكن ـ مهما يكن من أمر ـ فان من الثابت أن الموشحات الأندلسية ذات جذور عربية دون شك .. ولم يقل بغير هذا غير المغرضين سواء من المستشرقين أو من تأثر بهم وقلدهم في تعسفهم المنهجى ، وخاصة حين يكون الأمر متعلقا بالعروبة والاسلام .. ذلك لأن الاستشراق من أساسه لم يوجد إلا لمحاربة العروبة والاسلام وبث الشكوك في تراثهم وامجادهم ليوهنوا من عزتنا وفخارنا .. وليجدوا السبيل ـ بعد ذلك ـ ممهدا لأغراضهم الاستعمارية البحتة !!

ولكن لابد من كلمة عارضة هنا ـ لمجرد الانصاف ـ وهي أن رجال الاستشراق قد برزمنهم عدد من المنصفين .. بل برزمنهم من خدم اللغة العربية وآدابها خدمات جلى .

ونعود الآن الى مسألة كون الموشحة الأندلسية ، ثابتة الجذور العربية دون شك .. ولكن أن تكون هذه الجذورهي الشعر (الحميني) اليمني فذلك هو الجديد حقا في مسألة عروبة الموشحات الأندلسية .. فقد كنا نكتفي بالقول أن الموشحات الأندلسية ذات أصل عربي لاشك فيه .. ولكننا لم نجد من يقول أن هذا الأصل العربي هو في بغداد أو نجد أو الحجاز أو غير ذلك من الأصقاع العربية !!

أما وقد وجدنا الآن من أدبائنا من يقول أن الموشحات الأندلسية ذات أصل عربي ، ومن اليمن بالذات .. وأن هذا الأصل العربي اليمني مازال على قيد الحياة إلى الآن ممثلا في الشعر (الحميني) في اليمن .. فهذا مجال بحث جديد حقا .. .. ولا يمكن ـ لأهمية

الموضوع ـ أن نكتفي فيه بما قيل أو صدر حتى الآن سواء عن الاستاذ الشامي أو الاستاذ
الرفاعي ، رغم توسعهما في القول .. بل لابد أن يخضع هذا الأمر لمزيد من البحث
والتقصي .

ولكن مادامت قد انطلقت الشرارة الأولي .. فلابد أن يتبعها المزيد .. ولابد أن نقرأ
بعد الكثير من الأبحاث المنهجية المتأنية في هذا الصدد .. فلعل وعسى !!

القرآن .. وطه حسين

قرأت كتاب الدكتور طه حسين (في الأدب الجاهلي) منذ مدة طويلة ، وقرأت عنه أيضا معظم ما كتب نقدا له ، وكانت لي عليه بعض التهميشات المتواضعة اثناء قراءتي له ، ولم اظن ان اكتب عنه أو اعود اليه .

ولكن البارحة وقد أعياني الحصول على كتاب جديد ، كنت افتش في مكتبتي عن كتاب ما فوقع نظري عليه ، فكان هو نصيبي في مطالعة البارحة .

وقد عن لي ان اناقش موضوعا بذاته من موضوعات الكتاب او بالأصح رأيا بذاته من آراء الدكتور طه حسين على كثرة ماله من اراء جريئة في هذا الكتاب .

وارجو ان لا يعتبر مقالي هذا ردا على الكتاب أو نقدا له ، وانما هو مجرد (مذاكرة !) في نقطة بذاتها ليس غير ، حيث استوقف انتباهي رأي من أعجب آراء الدكتور طه حسين في هذا الكتاب ، وهذا الرأي العجيب ليس هو اتهامه المشهور بان معظم الشعر الجاهلي (انما هو نحل الرواة او اختلاف الاعراب أو صنعة النحاة او تكلف القصاص او اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين) فقد يكون له في ذلك بعض الحق حيث ان الانتحال في الشعر العربي جاهليه واسلاميه أمر ثابت في تاريخ الادب العربي ودوافعه واسبابه معروفة مشهورة ، ولكن ليس الى الحد الذى بلغه طه حسين بنسفه الشعر الجاهلي من جذوره .

كل ذلك عجيب أو غير عجيب من الدكتور طه حسين ، ولكن الأعجب منه حقا ان يجعل الدكتور طه حسين من عدم معالجة الشعر الجاهلي الذى وصل الينا للحياة الدينية والسياسية والاقتصادية الخ ، اكبر دليل عنده على انه ـ اي الشعر الجاهلي ـ منحول وانه لذلك ـ اي طه حسين ـ يتخذ من القرآن مرآة للعصر الجاهلي أكثر مما يتخذ من الشعر الجاهلي مرآة لذلك العصر ، لأنه ـ أي القرآن ـ قد عكس جوانب كثيرة من تلك الحياة الجاهلية في معظم جوانبها الدينية والسياسية والاقتصادية الخ .

ولست ادري كيف فات على أديب عظيم مثل طه حسين أن الأدب الجاهلي ـ وه
الذى لم يدون الا أقله ـ لم يكن يعني ـ كما هو مفهوم الادب الآن ـ بتصوير الحيا
سياسة أو اقتصادا او اجتماعا الخ .

وفي الاساس لم تكن العرب في جاهليتها دولة حتي يكون لها كيان اقتصادي
أو سياسي أو اجتماعي ، وانما كانت قبائل مجزأة مشتتة يحارب بعضها بعضا ، وينهب
ويسلب ويعتدي بعضها على بعض ، فكان النظام القبلي هو السائد ، والقبيلة في جزير
العرب مهما عظمت لايمكن ان يكون لها طابع سياسي أو اقتصادي معين ثم كم هم الشعرا
الجاهليون الذين وصلت الينا بعض اشعارهم ؟ .

انهم قلة ، وكل واحد منهم أو ربما اكثر من واحد يمثل قبيلة بذاتها فكيف يريد ط
حسين من هذا الذى وصل الينا من الشعر الجاهلي أن يمثل الحياة الجاهلية في جميع
مناحيها ، والا فهو منحول ؟!

ونحن نعرف ان الشعر الجاهلي لم يكن يعبأ بغير وصف منظر أو سنحة خاطر أو تفاخ
أو منافرة أو غزل أو غير ذلك مما يحوم حول هذه المعاني .

وأكثر ما يمكن أن يمثله من المعاني التي يريدها طه حسين بالنسبة للحياة الاجتماعية
مثلا هي ما يمكن ان يذكره هذا الشعر عرضا عندما يذكر المربع والمشتي والخيمة وبعر الآرا
في العرصات ودارة جلجل والمطر وصبانجد والخزام والعرار والنخيل والابل وقعبان اللبن وم
الى ذلك .. فتلك أشياء مشهورة كثيرا في الشعر الجاهلي وهي حياة القوم الاجتماعية ، ف
الشعر الجاهلي الذى وصل الينا .

أما بالنسبة للجانب السياسي في الحياة الجاهلية .. فاعتقد أن الشعر الجاهلي الذي
وصل الينا حتي ولو كان بعضه منحولا يمثل الحياة السياسية للجاهليين خير تمثيل ـ وان
كان ولابد من ذلك ، وهل الحياة السياسية للجاهليين إلا غزو قبيلة لأخرى ، وحمى
مرعى ، واغتصاب قافلة مع عزلة شبه كاملة عن العالم (لنا في موضوع العزلة رأي سيأتي
بعد) ، وذلك ما حفل به الشعر الجاهلي كثيرا فاننا نكاد نجد شعرا جاهليا في كل يوم من
أيام العرب .

ومعروف انه لم تكن للعرب في جزيرة العرب حكومة مثلا يمكن ان تقيم علاقات سياسية أو اقتصادية مع الدول الاخرى حتى يكون هناك طابع سياسي أو اقتصادي معين يمكن ان يشير اليه الشعر الجاهلي .

فاما الناحية الدينية التي يركز الدكتور طه حسين عليها كثيرا .. أو بالأصح يركز على أنها لم تمثل في الشعر الجاهلي بقدر ما مثلت في القرآن الكريم فهذه نقطة مهمة بالفعل ، ولكن أود أن أوضح أن الشعر الجاهلي الذي وصل الينا لم يدون الا في عصر التدوين في صدر الاسلام ، وكان رجال التدوين من أعلام الاسلام الاجلاء فليس من المعقول ان يدونوا الشعر الخاص بالأصنام والوثنيات أو الديانات اليهودية أو النصرانية أو المجوسية ، وقد نجاهم الله من كل ذلك بالديانة الاسلامية .

ولقد كان تدوين الشعر الجاهلي في صدر الاسلام لا لشيء الا لكونه شاهدا من شواهد القرآن واللغة أيضا ، وقد اجتهد في ذلك رجال التدوين على قدر ما يريدونه من الشعر الجاهلي لا على قدر ما يريده الدكتور طه حسين منه تبعا للمفاهيم التي لم يحسب حسابها الشعر الجاهلي نفسه ما دون منه ومالم يدون ، ولا حسب حسابها ايضا رجال التدوين في صدر العصر الاسلامي . فأما القرآن الكريم فانه قد ركز على النواحي الدينية في الجاهلية في معرض الرد عليها واظهار مساوئها وفسادها .. ولم يكن همه أن يؤرخ الحياة الدينية في الجاهلية او غيرها .. فالقول اذن بان الشعر الجاهلي الذي وصل الينا منحول كله لانه لم يمثل الحياة الدينية فيه شيء كثير من الاعتساف للمنطق والضعف في الحجة والخذلان في البرهان .

اما الناحية الاقتصادية في الجاهلية وفي صدر الاسلام ايضا .. فلم تكن غير زراعة وماشية ومرعى وما شابه .. ومع ذلك فقد كان للعرب في الجاهلية اسواقهم واشهرها مثلا سوق عكاظ .. وقد كان اكثر ما يتبادل في هذه الاسواق منتوجات العرب انفسهم من بر وسمن واقط أو شراء اسلحة من خناجر وسيوف ورماح الخ .

أما الأقمشة فكانت تأتي من اليمن والبرد اليماني مشهور ـ وكذلك كانت تأتي من الشام ايضا ومعها الطيب الخ .

ولذلك كانت قريشا سادة تجار العرب لعدة اعتبارات ، اهمها وجود الكعبة المشرفة في جوارهم وكانت عندهم ـ أي قريشا والعرب كافة ـ مقدسة وأصنامهم معلقة بها ويحجون اليها .

وكذلك سوق عكاظ وهو على مقربة من مكة المكرمة وضمن ديار قريش ، وقد كان سراة العرب من رؤساء قبائل وفرسان وشعراء يفدون الى هذه السوق للمفاخرة والمنافرة من جهة ولشراء ما يلزم وبيع ما معهم من جهة اخرى .

وطبعا لم يكن يلزمهم من بيع وشراء اكثر من بر وسمن وأقط وسيف ورمح وخنجر الخ . فماذا يريد طه حسين من حياة اقتصادية للجاهلين ؟

ولكننا نستثني قبيلة قريش من ذلك فلقد تنبهت هذه القبيلة الى ما يمكن ان تفيده من تجمع العرب حولها وحجهم الى الكعبة المشرفة واجتماعاتهم السنوية بسوق عكاظ فكان من الطبيعي أن تفكر في التجارة الخارجية (جلب القماش والطيب ونحو ذلك) .

وتم لها فعلا اتصالات تجارية كبيرة مع الخارج .

وكانت تبذل الأموال بسخاء للقبائل العربية في طرق قوافل تجارتها فسادت بذلك ، والا فانها كانت أضعف من أن تحمي قوافل تجارتها من سائر القبائل العربية في طريقها .

وعلى كل حال فتجارة قريش مع الخارج وخاصة مع الشام بالذات هي أبرز مظاهر الحياة الاقتصادية الجاهلية .

وهكذا لانجد ما يبرر رأي طه حسين هذا .. والله اعلم !!

البلاد ١٣٩٢/٩/١هـ

تطوّر الصّحافة في المملكة العربية السعودية

هل صحيح أن الدراسات الأدبية والتاريخية تنشط حيث يخمد الابداع والابتكار؟
سواء كان ذلك صحيحا أم غير صحيح فان هنالك من يقول به .. وانه لينطبق على واقعنا الفكري كل الانطباق تقريبا .

ففي هذه الفترة التي نعيش فيها الركود الأدبي في مجال الانتاج الابداعي المبتكر تنشط عندنا الدراسات الادبية والتاريخية ولاشك ان لذلك دلالة او دلالات ، ولكن ما يهمني أن أشير اليه هنا هو اثبات الرأي الآنف عن طريق المقارنة في مجال بذاته هو المجال لصحفي .

لقد استمر النشاط الصحفي منذ العهد العثماني مرورا بالعهد الهاشمي الى عهدنا السعودي الحاضر وصدرت في مختلف هذه العهود الكثير من الصحف والمجلات والجرائد اليومية والشهرية والأسبوعية .

واستمر اصدار الصحف والانتاج والكتابة المستمرة فيها دون أن يصدر أي كتاب يختص بدراسة التاريخ الصحفي منذ ذلك العهد حتي الآن حيث نشط بعض كتابنا في اصدار كتب تاريخ ودراسات لصحافتنا في عهودها المختلفة .

فقد صدر الى الآن في فترة وجيزة جدا ثلاثة كتب دفعة واحدة :

١ ـ كتاب موجز الصحافة في المملكة العربية السعودية للاستاذ محمد بن ناصر بن عباس .

٢ ـ الصحافة في الحجاز للدكتور محمد عبد الرحمن الشامخ .

٣ ـ تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية للاستاذ السيد عثمان حافظ .

وهناك كتاب رهن الطبع للاستاذ عثمان حافظ ايضا بعنوان « الصحافة في ربع قرن »
فعلى ماذا يدل هذا النشاط في دراسة تاريخ صحافتنا ؟!

لعل الدراسات من هذا القبيل هي نتيجة حتمية لوعينا دور الماضي في بناء الحاضر وليس من قبيل كم ترك الاول للآخر ؟

لقد وجدتني أندفع لكتابة هذه المقدمة وأنا أهم بالكتابة عن كتاب « تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية » للأستاذ عثمان حافظ .

قبل ان اطلع على هذا الكتاب الذي يقع في ٥٠٠ صفحة من الحجم المتوسط وأنا أجزم بأنه لابد أن يكون كتابا قيما .. ذلك لأن مؤلفه قد عاصر الصحافة وتمرس بها منذ ٣٥ عاما عندما أصدر بالاشتراك مع أخيه الاستاذ السيد علي حافظ جريدة المدينة المنورة التي لايزال المؤلف رئيسا لتحريرها[1] الى الآن ولم يتخلف عن المشاركة فيها والعمل بها سواء كان رئيسا لتحريرها أو غير ذلك . فكان لابد أن أتوقع انعكاس هذه المعاصرة والممارسة بين دفتي الكتاب بشكل لابد أن يجعل للكتاب قيمة أكبر مما لو كان مجرد دراسة استقرائية من بطون الكتب أو أفواه الرواة !!

ولكن الحقيقة انني لم أجد في الكتاب كما كنت اتوقع أثرا من روح المعاصرة اللهم الا فيما يختص بجريدة المدينة المنورة وحتى فيما يختص بجريدة المدينة المنورة لم يكن الشأن فيه كما كنت أتوقع !!

وتوقعي هذا يستند الى ما كنت قد قرأته للأستاذ عثمان حافظ نفسه قبل حوالي ثماني سنوات في جريدة المدينة المنورة بعنوان « الصحافة في ربع قرن » وهي الحلقات التي كان من المفروض ان يتضمنها هذا الكتاب الا ان المؤلف اعتذر بتضخم صفحات الكتاب بشكل لم يكن يقدره فرأى أن تكون تلك الحلقات في كتاب مستقل وهو الآن بالفعل تحت الطبع في مطابع شركة المدينة ـ كما أخبرني المؤلف نفسه ـ

وهكذا جاء الكتاب بدون تلك الحلقات التي تتسم بالطابع الشخصي وروح المعاصرة على غير ما كنا نتوقعه من كتاب في تاريخ الصحافة لمثل الاستاذ عثمان حافظ .

جاء الكتاب مجرد سجل تاريخي حافل لايختلف عن أي كتاب سردي تاريخي لا نبض فيه ولا حرارة وان كانت لاتنقصه الدقة والاستقراء . وها نحن نستعرض الكتاب

---

(١) رئيس تحريرها الأن الاستاذ احمد محمود

ومنهج صاحبه في تأليفه ، يقع الكتاب كما أسلفت في ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط طبع ونشر شركة المدينة للطباعة والنشر الطبعة الأولى وتشتمل على :

١ ـ الأهداء الى كل العاملين في مهنة المتاعب الذين لايبرحون مكاتبهم الا مع ساعات الصباح الاولى الخ .

٢ ـ التمهيد للكتاب بدراسة عن الصحافة وتاريخها في العهدين العثماني والهاشمي كمدخل للحديث عن تطور الصحافة في العهد السعودي الذي أفرد لدراسته فصلين .

« اولها ـ كما يقول المؤلف نفسه ـ يتعلق بدراسة مفصلة للصحافة في هذا العهد من خلال دراسة الظواهر الصحفية وتطورها والتي تتمثل في دراسة الصحف السعودية وتطورها حتي وقتنا الحاضر » .

« وثانيهما : يتعلق بالمراحل التي مرت بها جريدة المدينة المنورة منذ ٣٥ عاما حتي يامنا هذه »

أما منهج المؤلف فهو في الاغلب الاعم ذكر الصحيفة أو المجلة أو المؤسسة الصحفية وذكر تاريخ صدورها وتاريخ انتهاء صدورها وذكر رئيس تحريرها العام ورسم اشتراكها الى أمثال هذه المعلومات التي لايكاد يعدوها اللهم الا بالنسبة لجريدة المدينة التي توسع في لحديث عنها وعن المراحل التي مرت بها .

هوامش وملاحظات

١ ـ اعود فأقول ان الكتاب عبارة عن سرد تاريخي فيه جهد جمع المعلومات وتقصي التاريخ وليس فيه روح الدراس المتأمل المستنتج .

٢ ـ سرد المؤلف معلومات كثيرة مهمة مثل المعلومات التي أوردها عن أوائل الصحف في مختلف البلدان دون الاشارة الى المراجع التي استند عليها في هذه المعلومات وان كان قد أثبت قائمة بالمراجع الا ان ذلك لايكفي فالاشارة الى المراجع عند كل نص ضرورة مهمة لأنها تعين اي باحث يريد الاستفادة من الكتاب ومن مراجعه .

أما اثبات قائمة المراجع فالأصل فيه إهداء القارىء الى مظان البحث بصفة عامة لمن يريد التوسع في المعلومات أما النصوص فلابد من الاشارة الى مراجعها اذ لايستطيع القارىء ان يبحث في جميع الكتب المشار اليها في قائمة المراجع للتأكد من نص بذاته .

٣ ـ لعل من اهم ما في الكتاب بالاضافة الى أهميته التاريخية تلك الفهارس المنظمة للاعلام والصحف وإن كنت قد لاحظت مع الأسف عدم دقتها .. فهناك اسماء في الكتاب ليست موجودة في فهرست الاعلام واضرب مثلا لذلك باسم كاتب هذه السطور فقد ورد مرتين في الكتاب ولكنه غير موجود في الفهرست بالاضافة الى غيره من الاسماء .

ومع ذلك فهي فهارس منظمة ومفيدة جدا رغم الأخطاء التي اعتورتها .

وبعد فتحية وتهنئة لاستاذنا المؤلف .. ونرجو ان يتحفنا بالمزيد من ذكرياته الصحفية .. وليعذرني على بعض الملاحظات التي ابديتها فقد صدرت عن نية صافية مخلصة علم الله .. بل صدرت أيضا عن حب واكبار واجلال لاستاذنا المؤلف .. ثم هي في النهاية ملاحظات لاتقلل من قيمة الكتاب والحمد لله ..

البلاد ١٥/ ٧/ ١٣٩٢ هـ

كتابان جديدان
عن تاريخ الصحافة في المملكة

لاشك ان مما يلفت النظر ويدعو الى التفاؤل هذا الالتفات نحو الدراسات الأدبية والتاريخية من بعض شبابنا المثقف على الرغم مما يشيعه بعض شبابنا أيضا ـ مع الأسف ـ من أن الدراسات التاريخية .. انما هي نبش قبور وتحنيط فكر .. الخ !!

ولو قد علم هؤلاء القائلون ، مدى أهمية هذه الدراسات ومدى ما لابد أن تتركه من أثر بارز في بناء كياننا الأدبي والفكري لأقلوا اللوم كما قال الشاعر :

اقلوا عليهم لا أبا لأبيكم
من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

اولئك قوم ان بنوا أحسنوا البنا
وان عاهدوا أوفوا وان عقدوا شدوا

ولكنهم لايعلمون ، وانهم ليتشدقون بسفاسف من الانشاء الركيك ، والجمل المرصوصة ، والعبارات الغامضة ، والكلمات الجوفاء ، ويسمون ذلك أدبا مبتكرا !!

وما هو من الابتكار في شيء .. بل حتي ولو كان ذلك من الابتكار في صميمه .. فانهم لايعلمون ان الدراسات انما هي مخاض الابتكار وغربلته !!

ولو قد علموا أو عانوا مدى صعوبة الدراسات الأدبية والتاريخية ومدى ما تتطلبه من تحصيل وجهد ووقت لأقلوا اللوم ايضا .!!

أما سهولة ويسر المقالات الانشائية والعبارات « البلاستيكية » وتكلف الايهام والابهام والغموض بدعوى الرمز .. فقد عرفوا كل ذلك وطاب لهم بيسره وسهولته !!

قلت ان ما يلفت النظر ويدعو الى التفاؤل هذا الالتفات من بعض شبابنا المثقف نحو الدراسات الادبية والتاريخية ولست بسبيل استعراض ذلك .

وانما امامي الآن من هذا القبيل كتاب الدكتور محمد الشامخ « الصحافة في الحجاز ١٩٠٠ ـ ١٩٤١ م دراسة ونصوص »

وكتاب « موجز تاريخ الصحافة في المملكة العربية السعودية » للصديق العزيز الاستاذ
محمد بن عباس وواضح من عنواني الكتابين وحدة موضوعهما تقريبا وان اختلفت الفترات
الزمنية واختلفت ايضا طريقة التناول . وها نحن نستعرضهما معا لوحدة موضوعهما :

١ ـ الصحافة في الحجاز

يقع الكتاب في ٢٣٢ صفحة من القطع المتوسط طبع دار القلم في بيروت الطبعة
الاولي (١٣٩١ هـ) تأليف الدكتور محمد الشامخ المدرس بكلية الآداب بجامعة الملك
سعود وقد قسم الدكتور المؤلف كتابه الى ثلاثة أبواب كل باب من فصلين .

وقد خصص الفصل الاول من كل باب للدراسات المختصة بموضوع الباب أما
الفصل الثاني من كل باب ايضا فقد خصصه للنصوص ولئن كانت هذه النصوص
المنقولة قد احتلت معظم صفحات الكتاب وهي عبارة عن افتتاحيات ومقالات وأنظمة .
الا انها مهمة جدا بالنسبة لموضوع البحث ومنهجه حيث تلقي الضوء على جانب أ
جوانب مهمة في مسار البحث .. وهي لذلك لابد منها ليلمس القارىء بنفسه كيف بد
رواد الصحافة في الحجاز وكيف كانت أساليبهم في ذلك العصر ـ موضوع البحث ـ
وطرائق تناولهم ، ومناحي تفكيرهم ومطامحهم واهتماماتهم الخ !! فأما الدراسات التي قدمها
الدكتور المؤلف فمع أنني سبق أن قرأتها أو معظمها في مجلة (العرب) .. الا انني عدت
فقرأتها من جديد لأقدمها للقارىء في عرض موجز وتعليق سريع قدر ما يمكن ، بل أقصى
ما يمكن أن تطيقه جريدة يومية رغم ان قارىء الجريدة لايطيق في الواقع مثل هذ
الدراسات .

وقد كانت أبواب الكتاب وفصوله كما يلي :

١ ـ الباب الأول العهد العثماني (١٩٠٨ ـ ١٩١٦) ويختص الفصل الأول من
بنشأة الصحافة في الحجاز ، ويتناول بالدراسة والعرض جميع الصحف التي صدرت في
هذه الفترة ، حجاز ، شمس الحقيقة ، الاصلاح الحجازي ، صفا الحجاز ، الرقيب
المدينة المنورة .. ثم أثر هذه الصحف في حياة الحجاز

أما الفصل الثاني فيشتمل على بعض النصوص المختارة مما يلائم موضوع البحث ومنهجه .

٢ ـ الباب الثاني (العهد الهاشمي ١٩١٦ ـ ١٩٢٥) وهو ايضا من فصلين الفصل الأول للدراسات ، والثاني للنصوص المختارة .

٣ ـ الباب الثالث (أوائل العهد السعودي ١٩٢٤ ـ ١٩٤١) وهو كذلك من فصلين الاول للدراسات والثاني للنصوص المختارة .

ولست أريد ان اتعرض لمنهج البحث في الكتاب فلاشك أن الدكتور قد مارسه وعاناه طيلة دراساته الجامعية وتدريسه في الجامعة ايضا فان ابديت بعض الملاحظات في ذلك فانما هي من قبيل جلب التمر الى هجر كما يقول المثل ، ولاشك أن لي في ثقتي بحسن نيتي وفي سعة صدر المؤلف ما يشفع لي .. ومن ثم فهذه هي ملاحظاتي المتواضعة .

١ ـ وضع المؤلف بين يدي بحثه تمهيدا موجزا غاية الايجاز الى حد انه لم يف بغرض التمهيد كما ينبغي .. فهو لم يذكر شيئا عن الاسباب والدواعي أو التطورات التي دعت الى وجود المطابع والصحافة ونشاط الحركة الفكرية والأدبية بينما وصل مدى تمهيده الى عام ١٣٤٣هـ في الوقت الذي أشار فيه في الفصل الأول الى أن أول مطبعة أسست كانت ١٣٠٠هـ فكان من الأجدر أن يشير الى الارهاصات التي سبقت تأسيس أول مطبعة ودواعيها ودوافعها وكذلك الصحافة ايضا .

٢ ـ لم يشر الى مدى تطور الصحافة والطباعة حين ذاك في العالم العربي على الاقل ولو بشكل موجز لكي يتيح للقاريء فرصة المقارنة النسبية بين هذه وتلك .

وهذه النقطة لم تفت على الصديق محمد بن عباس في كتابه عندما أفرد فصلا خاصا بعنوان : (مدخل تاريخي الى الصحافة العربية) (ثم الصحافة السعودية)

٣ ـ لم يشر الدكتور المؤلف ايضا الى مدى انتشار التعليم في الحجاز آنذاك مما يتيسر معه تكوين طبقة قراء لصحيفة أو عدة صحف ولكن في النصوص التي نشرها اشارات الى ذلك لعله اكتفى بها .

الاشارة الأولي هي ماورد في جريدة الحجاز (ودوام انتشارها هو متوقف على معاونتها بدفع بدل اشتراكها المتراكم عند مشتركيها الكرام من مأمورين وأهالي)

وهذا يعني أن مشتركي الجريدة في الدرجة الاولى من المأمورين أي الموظفين وفي الدرجة الثانية من الأهالي ولعلهم قلة من ذوي اليسار يتباهون بذلك .

وأما المأمورون أي الموظفون فلابد أن اشتراكهم كان وقتئذ من قبيل المباهاة أيضا !! وأذكر بهذه المناسبة أنني عندما تعينت لأول مرة في وظيفة حكومية (كاتب ضبط وعدل) في احدى محاكم جيزان ، فوجئت بكمية كبيرة من اعداد مجلة المنهل في دواليب المحكمة مع الدوسيهات ودفاتر الصادر والوارد [1] .

وعندما أردت آخذ بعضها اعترض فضيلة القاضي بشدة محتجا بأنها عهـدة على المحكمة وقد استطعت بعد ذلك أن أقنع فضيلته بغير قليل من الجهد بان هذه مجلة ثقافية أدبية تشترك فيها الحكومة لبعض دوائرها المهمة للاطلاع عليها فقط .. فهي ليست قبل أو بعد ذلك عهدة على الدائرة !!

وهذه الحكاية التي أوردتها تدلنا .. أو تلقي ظلا على أن المأمورين المشتـركين في جريدة الحجاز كانوا من هذا القبيل أو قريبا منه !!

اما الاشارة الثانية فهي ما ورد في جريدة (شمس الحقيقة) عن سبب احتجاب الجريدة وهو : (قلة رغبة الجمهور هنا في القراءة والاطلاع لأن الاماكن المقدسة قد حرمت من المدارس ، وفي مصر مثلا يحاول العامل الفقير الذي نال شيئا من العلم ان يوفر بعض من نقود خبزه ليشترى به جريدة تطلعه على أخبار العالم) الخ .

فليت ان الدكتور المؤلف قد اهتم بهذه الناحية ووضعها على صعيد التمهيد لبحثه القيم .

تلك هي بعض ملاحظاتي المتواضعة التي لابد من ذكرها في مجال العرض والنقد وان كانت لاتعتبر شيئا بجانب اهمية الكتاب ودقة تناوله .

---

(١) كان ذلك في مطلع عام ١٣٧٦ هـ

ومما لاشك فيه ان المؤلف قد بذل جهدا كبيرا بل هو اكبر بكثير مما يستحقه موضوع الكتاب فهو ـ أي الدكتور ـ قد تنقل بين عدد من المكتبات الكبيرة داخل المملكة وخارجها في تركيا وامريكا وغيرها بحثا وتنقيبا عن اعداد الصحف موضوع بحثه .. ثم هو يعرف جيدا منهج بحثه . ولاشك أن حماسه قد دفعه الى اكثر مما يتطلبه منهج البحث من جهد ووقت .

لقد ذهلت حقا من الملاحظات الذكية الغاية في الدقة التي أبداها الدكتور في ثنايا بحثه .. انه يلاحظ ما لايلاحظ ويلتفت الى مالا يلفت النظر .

انه يلاحظ مثلا : اختفاء شعار جريدة (القبلة) وهو الآية الكريمة ((وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه))

ثم لايكتفي بهذه الملاحظة بل يلاحظ ايضا في احد اعداد الجريدة بعد اختفاء الشعار أن السبب في ذلك أي حذف الشعار كان الخوف من أن يهان القرآن حين يرمي القراء بالجريدة بعد الفراغ عنها !!

أما ما درج عليه عند ذكر كل جريدة أو مجلة .. فهو ذكر سياستها ـ الجريدة أو المجلة ـ واتجاهاتها ، حتي مواردها المالية والجهة التي تسندها وفترات انقطاعها ومحرريها وميولهم وما حققته الجريدة مما اعلنته عن سياستها وما لم تحققه فهو يلاحظ مثلا أن جريدة الحجاز قد عنيت كثيرا بالسياسة مع انها أعلنت انها سياسية اقتصادية ادبية اجتماعية أي أنها لم تهتم بالنواحي الأخرى قدر اهتمامها بالسياسة وكل ذلك وغيره في دراسة دقيقة واستنتاجات نابهة ذكية يتبعها بالنصوص التي تؤيدها وتدعمها كما هو شأن الباحث المدقق .

٢ ـ موجز تاريخ الصحافة في المملكة العربية السعودية :

يقع الكتاب في ٣٥٤ صفحة من القطع المتوسط طبع مطابع مؤسسة الجزيرة بالرياض الطبعة الأولي ١٣٩١ هـ تأليف محمد ناصر بن عباس .

يشتمل الكتاب على قسمين القسم الأول (مدخل تاريخي الى مكانة شبه الجزيرة العربية) والوضع الحالي للمملكة العربية السعودية (ومدخل تاريخي للصحافة العربية ثم الصحافة السعودية) (والاطار العام لتكوين الصحافة السعودية)

اما القسم الثاني فهو مراحل (الصحافة السعودية) وقد جعلها ثلاث مراحل المرحلة الاولى من عام ١٣٤٣هـ الى عام ١٣٧٣ هـ اما المرحلة الثانية فلم يؤرخ لها وانما اسماها بالصحافة المتخصصة ودرس فيها تخصص الصحافة والفكاهة في الصحافة السعودية وحديث عن المرأة والمطابع .. ولست ادرى كيف يسمي ذلك مرحلة ثانية ؟!

أما المرحلة الثالثة فهي (الصحافة في عهد المؤسسات) وقبل أن أبدي بعض ملاحظاتي عن كتاب الصديق الكريم محمد بن عباس اود قبل كل شيء أن أشير الى أنني قرأت لأكثر من واحد من كتابنا ممن اعتادوا تقريظ الكتب ومجاملات المؤلفين قولهم ان الاستاذ محمد بن عباس قد تواضع عندما اسمى كتابه (موجز تاريخ الصحافة) والحقيقة انه لم يتواضع ابدا وان كان التواضع من أبرز مزاياه التي أعرفها عنه فهو على الرغم من حجم كتابه لم يستطع أن يقدم لنا غير نبذة موجزة جدا عن كل جريدة أو مجلة أو مؤسسة صحفية ، وان كان قد توسع في فصول أخرى من الدراسات التي لم أر لزوما لها اكثر مما كان يلزم من اعطاء معلومات وافية كما فعل الدكتور الشامخ - عن كل صحيفة ومجلة تاريخها وسياستها ، ميولها ، عدد محرريها ، مواردها المالية ، لغتها ، مدى توزيعها الخ .

ولاشك أن حجم الكتاب لايتسع حقا مع الفصول التي أوردها المؤلف الا ان يكون (موجزا) كما سمه لتاريخ الصحافة في المملكة ، ولذلك كان الاستاذ محمد بن عباس أذكى ممن ارادوا مجاملته ، ولاشك أنه قد ضحك منهم في سره فجعلهم كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى !!

ولو لم يقل الاستاذ محمد بن عباس أن كتابه انما هو ((موجز تاريخ الصحافة في المملكة)) لكنت وغيري على استعداد لنقده أشد النقد بأنه لم يشتمل على كذا ولم يحتو على ذاك !!

أما وقد احتاط بكلمة ((موجز)) فقد برهن على الدقة في التعبير .. الا ان مما يؤخذ عليه مع ذلك توسعه كما اسلفت - في بعض فصول الكتاب مثل ((حديث عن المرأة)) و ((الفكاهة في الصحافة السعودية)) وغير ذلك على حساب أشد الايجاز لتاريخ الصحف السعودية نفسها !!

ويكفي أن يلقي الصديق بن عباس أو غيره من القراء نظرة على كتاب الدكتور الشامخ ويقارن بين هذا وذاك خاصة بالنسبة لتاريخ كل صحيفة على حدة .

ان الاستاذ ابن عباس قد توسع لاشك في التمهيد لبحثه ولكنه عندما وصل الى موضوع البحث وهو تاريخ الصحافة نفسها أوجز أشد الايجاز وهو بلا ادنى شك قد أدرك ذلك عندما اسمى كتابه ((موجز تاريخ الصحافة)) وتلك هي العقبة التي وضعها بينه وبين النقاد فليكن له ماشاء !!

ولست ادري كيف فات على الصديق ابن عباس مدى الأهمية المطلقة للفهارس ... فهو لم يضع اي فهرس غير فهرس الموضوعات . اين اذن فهرس الاعلام وفهرس الصحف والمجلات وفهرس الكتب والمراجع الخ ؟!

ان مثل هذه الفهارس قد أصبحت من أهم الضرورات كما لا يخفي على المؤلف الكريم ومع ذلك فهو لا شك قد بذل جهدا مشكورا ، ولكل مجتهد نصيب !!

أرض بــلا مطر

ترددت كثيرا قبل أن أحزم أمري .. وأتوكل على الله لأكتب هذه الدراسة المتواضعة عن مجموعة قصص ، (أرض بلا مطر) التي صدرت أخيرا للصديق الأستاذ ابراهيم الناصر .

فقد قدرت أن الكثير من الخبثاء ، وما أكثرهم بين أصدقائي وغير أصدقائي .. لا بد أن يعلقوا بأنني لم أكتب هذه الدراسة لوجه الأدب .

وإنما لأن الناصر صديقي .. وسيجدون في أي ثناء عليه في هذه الدراسة ماقد يجعلهم يؤكدون وجهة النظر هذه .

أما إذا وجدوا بعض النقد .. فسيقولون أنه مجرد (ذر رماد في العيون) .. وان مثل هذه الأساليب تعمل فعلا على ذيوع الكتب وانتشارها .

وقد يستدلون في سبيل ذلك بالحكاية المتداولة عن برنارد شو .. من انه مرة عند صدور احد كتبه استأجر حيزا في صحيفة منتشرة وكتب مقالا ساحقا ماحقا ـ باسم مستعار ـ يلعن فيه (سنسفيل) ، برنارد شو وكتابه الجديد ..

وكانت النتيجة ان نفد الكتاب من الأسواق في أيام قلائل .. ليس ذلك فحسب .. بل ثار النقاد على ذلك (الوغد) الذي يجرؤ على النيل من قمة شامخة كبرنارد شو .. مع انه هو نفسه ..

هذه ناحية ..

وأما الثانية ـ على أسلوب طه حسين ـ فهي أنني ـ وهذا ليس تواضعا ـ لا أرشح نفسي حقا لنقد القصة أو الرواية .. وخاصة من الناحية الفنية .. لأن ثقافتي عن مقومات القصة وهيكلها الفني ، ومايجب فيها ومالايجب .. ليست الى هناك ..

ولكن يمكنني بالتأكيد ـ وهذا ليس غرورا ـ أن أقدم عن أي فن قصصي أو روائي

عرضا أدبيا .. ودراسة جادة عن الأغراض الاجتماعية التي جعل منها العمل الفني هدفا له ..

وهكذا فأنا منذ الآن بالرغم من كل العوائق سالفة الذكر ـ سأحاول أن أتناول مجموعة قصص (أرض بلا مطر) من هذه النافذة بالذات .. لأن الرؤية من خلالها ممكنة بالنسبة لي بصورة لابأس بها ..

المجموعة مكونة من ١٤ قصة هي (أرض بلا مطر ، نسيج العنكبوت ، عروس القرية ، شقاوة ، خيبة أمل ، لعنة الأبد ، شروق وغروب ، قدر ، الزوجة الثانية ، ضحية الثأر) ..

هناك بعض النقاد ممن قرأت لهم يعيبون على الأدباء ماقد يجدونه في إنتاجهم من ميل الى الاقليمية .. ويبررون ذلك بأنه يجب على الأديب أو الفنان أن يكون انسانيا شامل النظرة .. غير متقيد باقليمية ضيقة الخ .. الخ .

فهل في هذا الرأي الحق كل الحق ؟

أم هو الحق يشوبه شيء من الباطل ؟

أم هو الباطل فيه شيء من الحق ؟

ارسم علامات الاستفهام هذه .. لأنني توا .. بصفاء نية ، وطيب خاطر ، واقتناع أكيد على ما لاحظته بصورة واضحة في مجموعة الصديق الناصر من ميل سافر الى وصف ومعالجة لكثير من ادوائنا الاجتماعية هنا .. مما يمكن ان يدرج في القائمة المسماة بالاقليمية ..

فهل ندينه بالاقليمية وضيق الأفق .. وان نظرته وعمله الفني غير انساني شامل ؟!

وانه من ثم لايستحق ان يكون فنا من وجهة نظر النقاد الذين يتبنون الرأي السالف الذكر ؟

أم نصفق له .. ونقول هاهو شاب من شبابنا (اديب) يعيش معنا على ارضنا .. يشعر بشعورنا .. وينفعل بانفعالاتنا .. ويحس ذات الأدواء التي تنخر جسم مجتمعنا .. ومن ثم يسكب كل ذلك في بوتقة ، فنية ؟ .

الحقيقة أنني لا أشعر بقدرة كافية على أن أنكر على النقاد رأيهم القائل بأن على الأديب أن يكون ـ في عمله الفني ـ انسانيا شامل النظرة غير متقوقع في اقليمية ضيقة .

ولكنني ـ في نفس الوقت ـ اعتقد أن النظرة الأولى .. أول ماتقع على الأشياء القريبة منا .. ثم تمتد ، وتمتد حتي تتلاشي في مجاهل الآفاق الواسعة المترامية .

فهل نصر حقا على مطالبة الأديب بألا ينظر الا إلى بعيد مقتحما الكثير من الصور والرؤى من حوله .. والتي ، يمكن للقليل منها أن يشكل هرما فنيا متكاملا عندما يسكب في القالب الفني الآسر ؟ .

وناحية ثانية .

أعتقد أن مشكلاتنا الاجتماعية هنا قد تشابه الكثير من مشكلات البلدان النامية .. وفي هذا مافيه من نظرة انسانية ..

وحتي بصرف النظر عن هذا .. فان مما لاشك فيه ان النقاد على شبه اجماع بأن الأدب يجب أن يكون في خدمة الحياة .

أما (الفن للفن) فزمنه مضى وانقضى إلى غير رجعة وغير مأسوف عليه ..

أفليس من خدمة الحياة .. ان يعالج الأديب مشكلات مجتمعة ؟ .

عندما كتب الأستاذ توفيق الحكيم ـ وهو من هو قمة شامخة ـ : عودة الروح ، ويوميات نائب في الأرياف ، وحمار الحكيم .. وهذه كلها اقليمية بحتة تقريبا .. من قال عنه انه اقليمي او ضيق الأفق او انه غير شامل النظرة .

كذلك الأستاذ نجيب محفوظ ـ وهو أيضا من هو ـ في الثلاثية وغيرها .. من قال عنه مثل ذلك ؟! وان كان قد اتجه الآن اتجاها يختلف بالمرة شكلا ومضمونا عن اتجاهه السابق .

وغيرهما أكثر من الحصر .. عالجوا قضايا اقليمية بحتة .. ومع ذلك دخلت أعمالهم الفنية من أوسع أبواب الخلود ...

نخلص من ذلك كله إلى أن النقاد ـ في مسألة الاقليمية والانسانية ـ معهم شيء من الحق ، وليس كل الحق ؟

وأن الأدباء الذين يتجهون بانتاجهم الى وصف ومعالجة مشكلات مجتمعهم وبيئتهم معهم شيء من الحق أيضا .. فهم والنقاد كالحلقة يلتقي طرفاها من كل جانب .

أرض بلا مطر ..

قصة آمال طافحة بالتفاؤل .. ولكنها في النهاية تحترق في أرض بلا مطر ، وتتلاشي في الأفق دخانا مع اللهب المشتعل في أكواخ (رأس مشعاب) .. يعود الفتي ـ بطل القصة ـ خالي الوفاض ، خائب الأمل ، مندحر الرجاء .. بعد سنوات قضاها في الكد والجهد والعرق والطين وتكالب المحن .. ويخبر أهله بأنه فقد كل ماادخره ضمن مصيبة الحريق الآثم الغاشم الذي اجتاح (رأس مشعاب) بصورة ما أنزل الله بها من سلطان .

أما أمه .. فلم تعقب بشيء و . ولكن دمعة كبيرة تدحرجت بالرغم منها .. وأما والده فبصق على الأرض ونظر اليه شزرا وقال له : كنت أعلم أنك ولد غير نافع ..

وكيف لا ، وقد كانت عودته مرتقبة وهو محمل بالهدايا ، وكيس نقود عامر . ولكن يا للأسف .. من أين للأب ان يصدق أو يعي ماحدث حقا ؟ .

لقد تجلى الصديق الناصر في هذه الأقصوصة .. لأنه يبدو ـ بصورة أو بأخرى ـ انه نفسه بطل القصة مع بعض التعديلات التي لابد منها فنيا !!؟ .

والذات عند الفنان هي المرآة التي تنعكس عليها الملامح والصور التي يستقي منها الفنان مادته بغزارة !!

لذلك نجد أن أدب المذكرات الشخصية من المتعة الرائعة بمكان عال ..

ومع أننا لانقرأ فيه سوى أشياء شخصية ذاتية .. ولكن أية ذات ـ وخاصة ذات الفنان ـ يمكن أن تكون منعزلة عن الذوات الأخرى .. فأنت تجد عبر حديث الأديب عن ذاته ، ذوات أخرى رائعة الملامح والسمات . وهكذا كان الصديق الناصر على جانب كبير من التوفيق في قصة (أرض بلا مطر) .. لأنها قطعة من ذاته سكبها في قالب فني من غير تكلف ولا زيف .

المرأة في القصة

ناحية ثانية هامة في قصة (أرض بلا مطر) ؟

هناك كثرة من النقاد والأدباء يرون أن (المرأة) ضرورية للغاية ، ودورها في الطليعة من عناصر التشويق في القصة ، وبناء هيكلها الفني .. حتى ان بعضهم يعزون تخلف القصة عندنا الى ان ديننا وتقاليدنا لاتسمح بالتوسع في استخدام المرأة كعنصر تشويق الا في حدود ضيقة جدا .

وهذا رأي فيه جانب كبير من الحقيقة .. إلا أنني أعتقد ـ بالرغم من ذلك ـ ان القاص المتمكن من فنه ـ يمكن أن يجذب القارىء بعناصر تشويق ليس منها بالضرورة المرأة !!

فأرض بلا مطر ليس فيها أي دور للمرأة .. اللهم الا دمعة يتيمة تدحرجت من عيني أم بطل القصة دون أن تفوه بكلمة واحدة .

ومع ذلك فهي قصة لايمكنك أن تتركها إذا بدأتها حتي تنتهي منها !!

نسيج العنكبوت

في قصة (نسيج العنكبوت) يعرض علينا الناصر نموذجا رائعا نعيشه ، ولكن بأسف ومضض .

ما أن يبلغ منا الشاب سن الحلم حتى يبدأ تفكيره فيمن تشاركه حياته .. متخيلا بصورة مشبوبة ماعسى أن تكونه من قد ممشوق ، ووجه صبوح ، ونهد نافر ، وأديم أملس ناعم ، وأريج عطر فواح يذكي التخيلات الغامضة !! .

وينتهي الأمر بشابنا الفاضل (البكر) الى الزواج .. وربما انقطع عن دراسته .. وبدأ بالحرث والنسل . والتحق بوظيفة مرتبة تاسعة او ثامنة (ان لم يكن خارج الهيئة فراشا او مراسلا) ليجد نفسه بعد سنوات قليلة تجاه عدد من البنين والبنات .. وكلهم أفواه تطلب اللقمة ، وأجساد لابد لها من كساء و... الخ .

ولقاء ذلك كله يجد (البطل) نفسه في النهاية يعاني ذل الدين .. ويتهرب بتمزق من الحاح الدائنين .. ويعد الأيام على أصابعه متمنيا ان ينصرم الشهر بأقصى مايمكن ـ مع انه ينصرم من عمره ـ ، حتي يستلم الراتب الذي يذهب توا الى جيوب الدائنين .

ومشاكل من هذا النوع لاعد لها ولا حصر .. وهناك يقف به السير عند مفترق طريقين لا ثالث لهما على يمينه طريق الشرف والاستقامة ، ولكنها محفوفة بالمصاعب والمتاعب .. لأنه لايمكن أن يكسب من جراء السير فيها غير مرتبه ..

أما الطريق الثاني على اليسار .. فهي طريق الشيطان .. السرقة .. النصب .. الاحتيال .. الرشوة .. دحر الضمير .. ولكن في أي من ذلك بعض المكاسب للأفواه الفاغرة !! .

وهنا يبدأ الصراع : أي الطريقين يسلك ؟؟

أما بطل قصة (نسيج العنكبوت) فقد اختار ـ بالرغم من كل شيء ـ طريق الشرف والاستقامة .. ولكن ، وهو يسير هائما مترنحا دامي القدمين التفت فجأة الى اليسار .. ليفاجأ بأن زميلا له قد سلك الطريق اليسرى .. ليس ذلك فحسب .. بل انه لم يمش غير خطوتين في تلك الطريق حتى عثر فجأة على كنز (رشوة) امتدت به أو بها يد لقاء مصلحة .. مجرد مسألة بسيطة !!

تعديل تاريخ في اشعار ما .. يفلت بموجبه صاحب اليد الممدودة من غرامة كبيرة .. هذه اليد نفسها سبق أن امتدت بالكنز نفسه الى بطل (نسيج العنكبوت) ولكنه رفضها في اباء وكرامة وشرف . وهاهو يرى زميله يقوم عنه بالدور الذي رفضه .. وكأن شيئا لم يكن .. لأن ضميره قد اندحر !!

ببساطة .. يعرض لنا الناصر في هذه القصة نموذجا رائعا لمرض اجتماعي .. لايكاد يخلو منه مجتمع في الواقع .

فما أهون الأمراض في ذاتها ولكن إذا كان الجسم واهنا متداعيا .. استشرى المرض واستفحل مادام لم يجد بنية صحيحة .. وجسما سليما .. أعني المجتمع .

عروس القرية

هو عنوان احدى قصص مجموعة (ارض بلا مطر) تدور حوادثها حول زواج سيدة سبق أن تزوجت وأنجبت ، ابنا مات والده في وباء اجتاح القرية .

وصحا الطفل ذات يوم على ضجيج وعجيج .. انه عرس امه .. لم يكد يفهم ذلك .. ولكنه مالبث ان فهم .

وهنا لايلبث القارىء أن يشعر هو أيضا أن الأستاذ الناصر قد بالغ كثيرا .. بل أسرف جدا في تصوير مشاعر الطفل ساعة فهمه لأن أمه ستزف الى رجل (صرخ بأعلى صوته) :

أحس (ان حادثا فظيعا قد تفجر في سماء حياته) (وعوى غيظه بصرخة أخرى مدوية) (واخذ يضرب الهواء بقبضته بجسمه في كل اتجاه) (واصابه غثيان فظيع) (واخيرا مد يده وتشبث بثيابه بعصبية واخذ يغرز اظفاره فيها وبلحمه .. وشرع في تمزيق ثيابه الواحد تلو الآخر) .

ـ لا أدري كم كان يلبس ؟ ـ هل يفعل طفل حديث السن كل هذا من أجل ان أمه تزوجت ؟ هل كان يعي حقا معني ان تتزوج أمه ؟ واذا كان على هذه الدرجة من الوعي .. هل يفعل كل هذا حقا ؟

وحتي بصرف النظر عن أن يفعل ذلك اولايفعل فان القصة في حد ذاتها لاتنتهي بنا الى غاية مهمة ..، فان زواج الأمهات الأرامل ليس مشكلة على الاطلاق ..

والا فهل نمنعهن من الزواج من أجل أن لايصرخ اطفالهن .. أو يمزقوا الثياب ؟

إن مصير الطفل ان يصبح رجلا وان يعتمد على ذاته .. وليس مشكلة أبدا ان يصرخ ويتألم اذا تزوجت أمه (وماله ياأخي ماتتزوج ؟) حتي لا تتورط في مصيبة أدهي !

ولكن أهم ماشد اعجابي في القصة كلها حكاية ذلك الرجل الغريب الذي جاء الى القرية بغرض فتح صيدلية بعد ان اجتاح القرية وباء عظيم فكان نصيبه ان تصدى له شيوخ القرية .. ورفضوا ان يؤجروه دكانا بحجة المحافظة على عذرية قريتهم ان يدنسها الأجانب !!

وظاهرة التزمت هذه حتى ضد الأشياء النافعة موجودة فعلا مع الأسف في معظم قرانا ولم يرتكز وجودها الا على اسس من الجهل وعدم القابلية للانفتاح على أي جديد حتي وان كان مفيدا نافعا . لأن الجهل بقيمته يولد الشعور بالعداء له .. فالانسان عدو لما يجهل . « على فكرة .. بالنسبة لي أنا فأمي رحمها الله لم تتزوج غير والدى » !!

شقاوة

قصة قرية يلف أهلها سياج من الخرافات والخزعبلات ، والايمان بالأشباح التي يرفضها العقل .. ولكنها ، تجد طريقها سهلة ميسورة الى عقول ابناء القرية وإمام جامعهم نتيجة الجهل المطبق الذي يكتنفهم في دياجير من ظلماته .. ويسهم الفراغ وضيق محيط القرية في تغذية الايمان الأعمى بالأرواح والأشباح حتي انه اذا عثر صبي عثرة خفيفة هينة .. هبت الأم فزعة مرعوبة لتكسر عدة بيضات في مكان العثرة حتي لايصاب فتاها المحبوب بسوء !!

وحتي انه اذا انطفأ سراج (وغالبا مايحدث ذلك بسبب دفقة ريح او تيبس خزان الوقود ، ان لم يكن بسبب احتراق الفتيل ذلك يعني حسب الاعتقاد العتيد .. ان هنالك جماعة من الجن تريد ان تمرق لزاوية من زوايا البيت) .

ويسهب الصديق الناصر كثيرا في تصوير هذه الخزعبلات في القرية اياها حتي بلغ من ذلك ماشاء . ويصل بالحبكة الى ذروتها عندما يسرد حكاية الاشاعات التي انتشرت في القرية بأن الجن غير راضين عن جيرة (ابومصطفي) .

وتحولت الاشاعات الى حقيقة ملموسة عندما أخذت الحجارة تنهال ليليا على منزل (ابو طه) لتهشم كل ماتندق فيه من زجاج وأوان .. ولتجعل القرية كلها في رعب وفزع شديدين .

وهكذا لم يجد ابو مصطفي بعد استفحال الخطب وتكرار الانذار المخيف مناصا من الرحيل بعد ان استشار اخاه وشيخ الجامع في الأمر فاذا هما يحثانه على وجوب الانصياع لرغبة الأرواح قبل حلول كارثة مؤكدة وماحقة ؟

ويرحل (ابو مصطفي) المغضوب عليه من الجن الى جهة غير معلومة .. وبعد رحيله .. عاد الأمن والاطمئنان الى القرية .. وكسبت رضى الأرواح والأشباح .. ولكن الحقيقة ماتلبث ان تنجلي .. وهي ليست في الواقع سوى صبي صغير ذكي استغل الايمان الراسخ بالأرواح والأشباح .. لينتقم شر انتقام من عمه ابو مصطفي الذي كان يسومه العذاب .. فكان الصبي يكمن كل ليلة في زاوية ما .. ويقوم بصب وابل من الحجارة على بيت عمه الذي اعتقد اهل القرية جميعا انها من غضب الأرواح والأشباح .. ولم يساورهم ادنى شك في ذلك . انها قصة الجهل الذي نحاربه الآن في كل مكان .

الجهل لايجر الى الايمان بالأشباح والسخافات فحسب ، بل يجر الى مختلف الموبقات والجرائم !!

المعرفة وحدها هي النور الذي تنصهر عليه الخزعبلات وتذوب ، وتتاح من خلاله ـ اي النور ـ الرؤية بصورة كافية .. ان ثقبا واحدا في الحائط يمكن ان ترى من خلاله اكثر مما يجب اذا كان النور كافيا ، فياصديقي الناصر .. لقد حفرت ثقبا .. فليحفر الآخرون .

خيبة أمل

قبل الحديث عن هذه القصة أود أن أطرح ملاحظة سريعة عنت لي اثناء قراءتي لها .. ان معظم احداثها تبدو مكملة بصورة أو بأخرى لاحداث قصة (ارض بلا مطر) .

لقد أحسست حين ارتسمت في ذهني هذه الملاحظة .. ان الصديق الناصر لو عاد وجمع هذه الأحداث في القصتين وخلطها مع بعضها .. ثم عاد الى سكبها او صياغتها في قالب فني من جديد على شكل رواية لاكتمل له التوفيق أروع بكثير مما عليه القصتان الآن ، في نظري على الأقل .

ليست هاتان القصتان فحسب بل انك تحس ان الأحداث والصور في معظم مجموعة قصص (ارض بلا مطر) تكاد تكون متجانسة قريبة بعضها الى بعض .. وان اختلفت الغايات في كل قصة .

ويبدو لي ان السر في هذا التلاحم في الأحداث والصور في مجموعة القصص .. هو

أن الصديق الناصر قد انتزع هذه الصور والأحداث مع التعديلات الفنية والتزويق ـ من أعماق ذاته وحياته في سن الطفولة وسن الشباب المبكر.

وبعد هذا نجد أنفسنا بالنسبة لقصة (خيبة أمل) تجاه عدد من العلامات رسمها لنا الناصر في عرض الطريق كل علامة من هذه العلامات تشكل سمة من سمات مجتمعنا ـ خاصة في القرية ـ وماهذا السواد الأعظم من شعبنا إلا من القرى !!

هذه السمات التي سلط عليها الصديق الناصر الأضواء هي :

١ ـ نوعية التربية التي يتلقاها الابن في القرية من أب جاهل ..

٢ ـ اضطراد الهجرة من القري الى المدن طلبا للمعيشة بسبب سوء الحالة في القرية ومن ثم المفارقات الكبيرة التي يلمسها المهاجر عندما يقارن بين اسلوب الحياة ومفاهيمها في المدينة والقرية .. فلا يلبث حتي تتكشف له أشياء أخرى جوهرية خلافا لاعتقاده السابق بأن حياته في القرية هي الحياة في كل مكان سوى بعض التخيلات الغامضة التي يثيرها في القرية بعض القادمين للزيارة من المهاجرين من احاديث عجيبة غريبة ، والتي لايكاد يصدقها اي عقل في القرية .. وخاصة اذا كانت عن السينما .. أو النساء اللائى يسرن في الشارع سافرات الخ .. الخ .

٣ ـ طريقة مايمكن ان يسمى بالحب بين الفتي والفتاة في القرية .. وكيف ان الفتاة تكتفي بالقاء نظرة متلصصة ـ هذا اذا تجرأت ـ على الخطيب المرتقب من خلال فتحة صغيرة من الباب عند مروره ..

٤ ـ الثقة بالنفس التي يعود بها المهاجر الى قريته عندما تعن له رغبة الزيارة بعد اغتراب طويل لأنه يحس في أعماقه ـ وهو في الواقع كذلك ـ انه الآن غيره بالمرة عما كان .. فقد أصبح ذهنه محشوا بأشياء جديدة .

واسمحوا لي أن أعيد التركيز على نقطة واحدة من هذه النقاط السالفة الذكر.

تلك هي نوعية تربية الابن من أب جاهل .. أو حتى من أم جاهلة ان تربية من هذا النوع لابد ان تخلف آثارا عميقة في نفسية الابن .. فانه لايكاد يمرأي يوم حتي يسمع لأقل خطأ يرتكبه أو حتي بدون خطأ سيلا من النعوت القاسية من أبيه :

حمار !

ثور !

كلب !

ولد غير نافع !

وتظل علامات الاستفهام تترى وترتسم في ذهن الطفل المسكين !!

ولد غير نافع .. حتي ليكاد يرسخ في نفسه انه فعلا كذلك وربما يشب على هذا الاعتقاد . مما يجعله لمدة طويلة فريسة عدم الثقة بالنفس ، والخور .. وتشتت العزيمة .. حتي اذا ما واتته الظروف .. واستطاع ببصيص من أمل في أن يكون غير حمار أو ثور .. واستمر يعمل ويعمل حتي يؤكد لنفسه انه « بني آدم » حقا ..

فاذا استطاع ان يحقق بعض النجاح في هذا السبيل ـ خاصة اذا هاجر من القرية .. وبدأ يعمل ويرسل لوالده بعض القريشات من مرتبه .. جاءته الرسائل المذيلة باسم ابيه وتبدأ عادة في مثل هذه الأحوال بعبارة : (ولدي العزيز) !!

أصبح أمام عواطف مضطربة فهو قد أصبح الولد العزيز .. بينما كان في السابق ذلك الحمار ، أو الثور أو الكلب أو الولد غير النافع .

وتضطرب عواطفه ، وأفكاره حتى تسبب في نفسيته عقدا عميقة الجذور تجاه نوعية تعامل الناس مع بعضهم حتى بين الأب وابنه !!

أما نهاية القصة « خيبة أمل » فهو عودة الفتى بعد غياب ثماني سنوات من القرية ليتزوج من « خالدة » تلك التي كانت تتلصص عند الباب لرؤيته عند مروره بالزقاق .. والتي كان قد أرسل لأبيه مبلغا من المال ليدخره له من أجل الزواج بها .

ولكنه يعود ليجد « خالدة » زوجة لأبيه .. وقد مهرها بالمبلغ نفسه الذي أرسله له !!

انها نهاية مفجعة ، ولكنها غير غريبة على جلافة الآباء في القرية .. ونظرتهم الى ابنائهم كثيران وحمير وكلاب وأولاد غير نافعين !!

أذكر بهذه المناسبة حكاية مماثلة أعرف أنا شخصيا أبطالها في قرية ما ..

ذهب أحد الآباء ليخطب لابنه فتاة ما .. وبينما كان الابن يتلهف لسماع النتيجة من أبيه .. واذا به يفاجأ بأن الأب الفاضل يقول للابن الثور .. ـ لقد رفضتك الفتاة وقبلتني أنا !!

طبعا ليس كل الآباء في القرية على هذه الشاكلة ولكن هذا النموذج الذي عرضه لنا الصديق الناصر لايجب أن ننظر الى حرفيته بالضبط . بقدر ما يجب أن ننظر من خلاله الى عينة من القسوة التي يتصرف بها الآباء مع أبنائهم في القرية .. مما يترك أثرا عميقا في نفسية الأجيال تلو الأجيال ، ولن يقضي على ذلك الا انتشار العلم والمعرفة في كل مكان من بلدى في القرية والبادية !!

البلاد ٩/٤/١٣٨٧هـ
٥/٥/١٣٨٧هـ

مع أدبَاء السجون

اذا سمحنا لأنفسنا باستخدام كلمة (سجن) بمعني شامل .. أو فلسفي .. ستجبهنا ـ حتما ـ حقيقة مريعة .. هي ان الانسان ـ أي انسان ـ في سجن دائم .. بل انه قد عرف السجن في بطن أمه قبل أن يولد .. كأنما كان سجنه في بطن أمه .. تهيئة لابد منها لما سيقابله من سجون في حياته الطويلة .. أو القصيرة !!

والغريب أن الانسان .. يسعى بنفسه ـ وبطيب خاطر ـ لمراودة السجون على نفسها .. فهو يبني بيته ـ مثلا ـ ويخسر الكثير من الأموال ليجد نفسه في النهاية في سجن !!

البيت سجن .. غرف ذات أربعة جدران ـ أبدا ليست هناك غرف جدرانها أقل من أربعة ـ يسجن نفسه في واحدة من تلك الغرف .. هي زنزانته المختارة .. اختارها بنفسه .. ودفع ثمنها ايضا من خالص ماله وعرق جبينه !!

ليس ذلك فحسب .. بل السجون في حياة الانسان متعددة .. سجن بيئته .. مجتمعه .. عاداته .. تقاليده .. أفكاره .. اخلاقيته .. عمله .. واقعه .. حتي ذاته في الواقع حبيسة داخل جسمه .. كلها سجون في سجون .. والعياذ بالله .. !!

ولكنها لاتسمى .. أو لاتعتبر كذلك .. إذ أطلقت عليها أسماء لطيفة مختلفة .. وأصبحت موضع رضي .. وسبحان مرضي العباد !!

أما السجن الذي اصطلح الناس على نعته حقا بهذا الاسم .. فهو المكان الذي تختاره عادة السلطات الحكومية في كل مكان وزمان .. لتستضيف فيه كل من يتورط في مخالفة التشريعات المرعية !!

وهناك ـ في المكان إياه ـ ربما يكبل بالحديد .. وربما يكتفى بفرض الاقامة الجبرية عليه دون أغلال .. ولكن النتيجة واحدة (إسمه سجن) كل هذا مفهوم .. وطبيعي !!

ولكن غير المفهوم .. وغير الطبيعي أن الانسان يضيق ذرعا بهذا السجن وحده .. بينما هو الخبير والراضي بضروب أخرى من السجون في حياته .. بل ـ كما أسلفنا ـ قبل أن يولد .. عرف أضيق (زنزانة) .. حتي خروجه الى الحياة من مضيق لايسعه الا بشق الأنفس .. نفسه ونفس أمه .. وربما نفس الطبيب .. وتفتت أكباد الخالات والعمات !!

ومع ذلك كله .. يضيق هذا الانسان الذي عانى انواع السجون بساعات قلائل ـ فضلا عن الأيام والشهور ـ اذا قدر عليه ان يقضيها في سجن السلطة !!

لماذا ؟ ماهو الفرق ؟

تساؤل في محله من وجهة النظر الفلسفية !!

ولكن اذا نظرنا الى هذا الضيق بسجن السلطات .. وفي الوقت نفسه الاقبال بنفس راضية على السجون الأخرى .. نجد ان مرجع ذلك مجرد تعود الانسان على تلك السجون حتي انتفى من ذهنه معنى ان تكون سجنا !!

أما سجن السلطات .. فلم يتعوده ، ولا اختاره بنفسه .. فظل في ذهنه سجنا بمعنى الكلمة .. ولأنه أي سجن السلطات ـ وهذا أكبر عيوبه ـ أنه يعني العقوبة .. وأنه يفرض فرضا دون مجال للاختيار . والمكوث فيه ـ لا قدر الله !! ـ يمنعه من العمل والسعي وراء لقمة العيش .. ويحرمه بالتالي من ممارسة الحياة في السجون الأخرى مع الأشخاص الذين يحبهم ويميل اليهم .. وحتي مع الذين لايحبهم ولايميل اليهم !!

ومن هنا كان السجن بهذا المعنى .. مصدر شقاء وكرب عظيمين .. فما أن يجد الانسان نفسه فيه حتي يضيق به ، وبالحياة وبنفسه .. أليس هو للعقوبة ؟ .

هذا استطراد جرتنا اليه الرغبة في الحديث عن أدباء وشعراء .. عانوا حياة السجون في مختلف الأزمنة .. فكان ما لا قوه من كرب وعناء .. ولواعج شوق وألم .. مصدر الهام تمخضت عنه روائع أدبية خالدة مازالت قرة عين .. ومثار اعجاب واهتمام بين القراء والمتأدبين ..

فقد أصدر الأستاذ عبدالعزيز الحلفي كتابا بعنوان (أدباء السجون) تحدث بين دفتيه عن كثير من مشاهير أدباء السجون .. واختار من أدبهم أروع ما استوحوه من بين الجدران !!

كذلك شاعر العراق الأستاذ احمد الصافي النجفي .. اصدر ديوانا كاملا بعنوان (حصاد السجن) وشارك الفيلسوف المعاصر .. الأستاذ (انيس زكي حسن) بكتابه (السجين) وغير ذلك من الكتب ، التي تعرضت جملة وتفصيلا لحياة أدباء السجون ... وأدبهم الصادر عن نفوس ممزقة .. وقلوب مكلومة مهيضة .. وخير ماتقرأه في الأدب (نوح باك أو ترنم شادى) .. فهو الأدب الخالص ينسكب من النفس مباشرة ..

يقص تجربة حية .. ومعاناة ذاتية .. ويعبر بصفاء ونقاء .. وبلا تكلف عن نزعات إنسانية خالصة .. والغريب أو اللاغريب ـ أنه حتي السجن .. تختلف الزوايا التي ينظر منها الناس اليه من شخص لآخر .. كشأنهم أبدا في كل شيء .. فبعضهم لايثير فيه السجن غير الأسي والحزن .. وبعضهم بالعكس يثير فيه التحدي والعزة والشموخ .. من ذلك قصة علي بن الجهم في سجن سامراء حيث يقول :

قالوا حبست فقلت ليس بضائري ... حبس وأي مهند لا يغمد
أو مارأيت الليث يألف غيله ... كبرا وأوباش السباع تردد
والشمس لولا انها محجوبة ... عن ناظريك لما أضاء الفرقد

وهكذا .. على هذا الروي والمنوال .. فهو البدر عندما يتجلى .. والغيث يحصره الغمام الخ ..

أي أنه ينظر إلى السجن بروح متحدية .. بل هو يراه المكان الطبيعي لمثله وأمثاله .. فالمهند لابد أن يغمد خشية خطره .. وحتى يضيء الفرقد لابد أن تحجب الشمس !!

وعلى النقيض من هذه النظرة المكابرة الى السجن .. تطالعنا نظرة اخري من زاوية مختلفة اكثر تواضعا .. فذلك حيث يقول (عاصم بن محمد الكاتب) وقد عاش السجن وعاناه ، والغريب انه يعارض ابن الجهم نفسه :

من قال ان الحبس بيت كرامة ... فمكابر في قوله متجلد
ما الحبس الا بيت كل مهانة ... ومذلة ومكاره لاتنفد
ان زارني فيه العدو فشامت ... يبدي التوجع تارة ويفند
أو زارني فيه المحب فموجع ... يذري الدموع بزفرة تتوقد

ولاشك ان نظرة كل انسان الى نقطة بعينها من زاوية مختلفة .. لها دائما مايبررها .. فنظرة علي بن الجهم الى السجن ناشئة عن احساسه المتدفق بخطورة شأنه .. وانه لم يسجن الا للتخلص من خطره .. فأثار ذلك في نفسه كوامن التحدي .. وربما كان ذلك . كما يقول زميله ـ مكابرة وجلدا .. حتي لايبدو ضعفه امام خصومه !!

أما (عاصم الكاتب) فربما لم يكن عنده مايبرر التحدي أو المكابرة .. فنظر الى السجن نظرة مجردة .. على أنه بيت مهانة ، ومثار شماتة الأعداء وتوجع الأصدقاء !!

أما ثالث .. من أدباء السجون .. هو الأستاذ سليمان العيسي .. فلا يثير السجن في نفسه غير مزيد من الوعي للحظة الراهنة والتأمل .. والمشاركة الوجدانية بازاء المعاني الانسانية التي يثيرها السجن في خاطره .. فقد استوحى ـ مثلا ـ « من حادثة فتاة فلسطينية باتت الى جواره في السجن قصيدة تثير الألم .. وتستدر الدمع » .. وفيها يقول :

وألقيت سمعي وظل النحيب	وراء جداري .. يشق الدجى
أقبّل رجلك دعني هناك	أريد بعرضك أن أخرجا
خذوني .. خذوني لا أستطيع	وبحّ على شفتيها ـ الرجا
خذوني وذابت بقايا	الحروف على شفة لم تجد مخرجا

وهو الى ذلك ينظر الى السجن على انه ليس مأساة في ذاته .. بل هي لحظة الروح الضجر .. والحرية المغلولة حيث يقول :

ليست المأساة قيداً أخرقا	انها لحظة روح ضجر
انها حرية مغلولة	أين لاحت خلف هذا الجدر

اما الحمداني ـ أبوفراس ـ فنظرته الى السجن تكاد أن تكون مزيجا من كل ماذكرنا آنفا .. فهو مهموم الفؤاد معذب الجسم .. ومع ذلك فدمعه في الحوادث غال !!

أية نفس كبيرة هذه ؟

بل أي صفاء ذهن ورقة شعور ألهمه أن يجد في نوح حمامة مصدر مقارنة بين الحالين .. حاله في سجنه .. وحالها طليقة حرة ترفرف حيث تشاء ..

أقــول وقــد ناحــت بقربــي حمامة　　أيــا جارتــا هل تشعريــن بحالي ؟
معـاذ الهـوي ماذقــت طارقــة النوي　　ولاخطــرت منــك الهمــوم ببال
أيحمــل محــزون الفــؤاد قوادم　　على فنــن نائــي المسافــة عالي
ايــا جارتــا ما انصف الدهــر بيننا　　تعــالي اقاسمــك الهمــوم تعالي
تعــالي تري روحــا لديّ ضعيفة　　تردد في جســم يعــذب بالي
ايضحــك مأســور وتبــكي طليقة　　ويســكت محــزون وينــدب سالي
لقد كنت اولى منــك بالدمــع مقلة　　ولــكن دمعــي في الحــوادث غالي

هذه لمحة خاطفة .. وخواطر شتى .. اثارتها في ذهني ساعة من زمن قضيتها بصحبة كتاب (أدباء السجون) وودت أن أشرك معي قراء (اليمامة) في متعة خالصة .. مع أدب رفيع غذته النفس الانسانية بشحنة من أسرارها وطاقاتها المتفجرة ..

اليمامة ١٥/٦/١٣٨٦هـ

ذكرياتي في البادية

بضع ساعات متواصلة قضيتها مع كتاب (ذكرياتي في البادية) للأستاذ حسن نجيله ، وهو أحد أدباء السودان الشقيق .

وقد أقبلت على الكتاب أقرأه بدوافع متعددة .. أهمها حبي الشديد لهذا اللون من الأدب .. أدب الذكريات أو المذكرات .. أجد فيه متعة لاتعد لها عندي متعة .. لذلك أحرص كل الحرص على اقتناء هذا النوع من الكتب .. ولا أذيع سرا اذا قلت انه حتى مذكرات (شارلى شابلن) موجودة في مكتبتي .. مع انني لا أهتم بحياة الفن والفنانين .. والممثلين .

ثم انني أجد في نفسي رغبة عارمة للاطلاع على أدب الأقطار الشقيقة كالسودان ، والمغرب وليبيا وتونس الي آخر القائمة من دول عربية واسلامية تفتقر مكتباتنا الى نتاج الأدباء فيها .

وقلت في نفسي .. هذه فرصة .. كتاب مؤلفه سوداني .. وهوذكريات أيضا .. فما أحب الذكريات الى نفسي .. مع انني مازلت شابا .. المفروض ان اتطلع للمستقبل .. وكتب المستقبل .

ولكن ماذا يهم .. مادمت أجد المتعة في النهاية ؟

وأنا أقلب الكتاب في يدي .. ثم بعدها قرأت المقدمة .. ثم بضع صفحات استبد بي شوق عارم ، الى بقية الكتاب .. ورحت اصنف في ذهني مقدما الموضوعات التي لابد ان يتناولها الكتاب .. وقلت ان كتابا هذه مقدمته .. وهذه البضع صفحات التي قرأتها منه .. لابد ان تكون موضوعاته كذا وكذا انسجاما مع الاستطراد والسياق ..

ولكن مع الأسف .. كلما تقدمت في الكتاب أجد المعلومات تتكرر .. والصور والرؤى تهتز نتيجة لتكرار عرضها بأسلوب وآخر .. في فصل وآخر من الكتاب .. مما عرفت معه ان فصول الكتاب قد نشرت كفصول او مقالات كل فصل منها على حدة .. ويستمر

الزمن فيكتب المؤلف فصلا آخر عن موضوع بعينه .. ولكن على طريقة (اذا اشتبكت دموع في خدود) تتشابك عليه الموضوعات أو بالأصح الذكريات والمعلومات .. يمسك بعضها برقاب بعض كما يقول الأسلاف .. فكان ماكان من تكرار .. لأن المؤلف عاد فجمع هذه الفصول التي سبق نشرها متفرقة وطبعها جملة في كتابه هذا (ذكرياتي في البادية) .. مما فقد معه الكتاب ، وحدة الموضوع ، وتسلسل الذكريات والأحداث .. فجاءت متنافرة متضاربة .. مكررة في معظم صورها .. تماما كما تضع في السلة ، خيار وبندورة ، وقثاء ، وفجل ، .. وربما الخربز .. السلة تلف الجميع .. ولكن اي خليط تجمعه ؟ ..

كان أحرى بالمؤلف .. أن ينفض عنه غبار الكسل ويقبل على هذه الفصول ، من ذكرياته اللطيفة .. فينسقها .. ويسلسل احداثها ويرتب صورها .. تماما ، الديكور الآن فن قائم بذاته .. ولابد ان يكون في الأدب هذا الديكور .. حتي تستريح به العين ويطمئن اليه الذهن ..

اما هذه الفوضي .. التي تميز بها عرض الصور والأحداث في هذا الكتاب .. فقد جعلتني أشعر أنني تجاه معرض يعج بالتحف الثمينة ولكنها مكدسة .. بعضها فوق بعض .. ومتناثرة ايضا واحدة هناك .. وعشراً هنا .. وانا انظر مأخوذا بجمال التحف .. ولكن لاتكاد عيني تستقر على تحفة بذاتها ، لسوء العرض .. وفوضوية الترتيب .

ومع ذلك .. فقد عشت يعلم الله بضع ساعات ممتعة أتأمل في هذه التحف الثمينة من الأحداث والذكريات والنوادر .

لقد خيل إلي أنني أعيش حقيقة مع الأستاذ (حسن نجيلة) أربع سنوات كاملة في بادية الكبابيس ..

ولكن الأستاذ (نجيلة) .. يتناول موضوعاته بذكاء المدرس .. وليس بعفوية الأديب !! .

ولا غرابة فالأستاذ نجيله يشتغل بالتدريس .. ومن منا لايعرف ان المدرس يضع نفسه .. او تضعه وزارة المعارف في برنامج محدود .. لايستطيع ان يدرس في مادته الا ماهو مقرر .. حتى ولو كان يعرف في هذه المادة علوم الدنيا والآخرة .. مما هو غير مقرر .

وهكذا شعرت .. ان الأستاذ نجيله في كتابه هذا أمام (سبورة) يعرض لنا بعض الصور بأساليب مدرسية وفق نهج مقرر .. ولكن هذه المرة ليست وزارة المعارف هي المسئولة ..

وشعرت في نفس الوقت ان هناك الكثير من الصور والذكريات يختزنها الأستاذ نجيله في سياق الموضوع نفسه .. ولكن المنهج يأبى عليه عرضها ؟ .

أي منهج هذا ؟

انه المنهج الذي وضعه الأستاذ نجيله بنفسه .. لأنه بشعور المدرس .. لايستطيع ان يفعل غير ذلك ..

وبعد .. فللأستاذ نجيله كل تقدير .. لأنه قد استطاع ـ على أي حال ـ ان يفتح لنا نافذة عبر كتابه هذا نطل منها على لون من حياة الانسان .. في موكب الانسانية على خط سيرها الطويل ..

وكم سعدت بذلك .. علم الله ..

فهرس

الموضـــوع	رقم الصفحة

❊ ❊ ❊

مطابع سحر جدة